حولية الكوفة

دورية سنوية، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها المعظم
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به ـ العدد الخامس ـ شهر رمضان ـ ١٤٣٦ هـ / تموز ـ ٢٠١٥ م

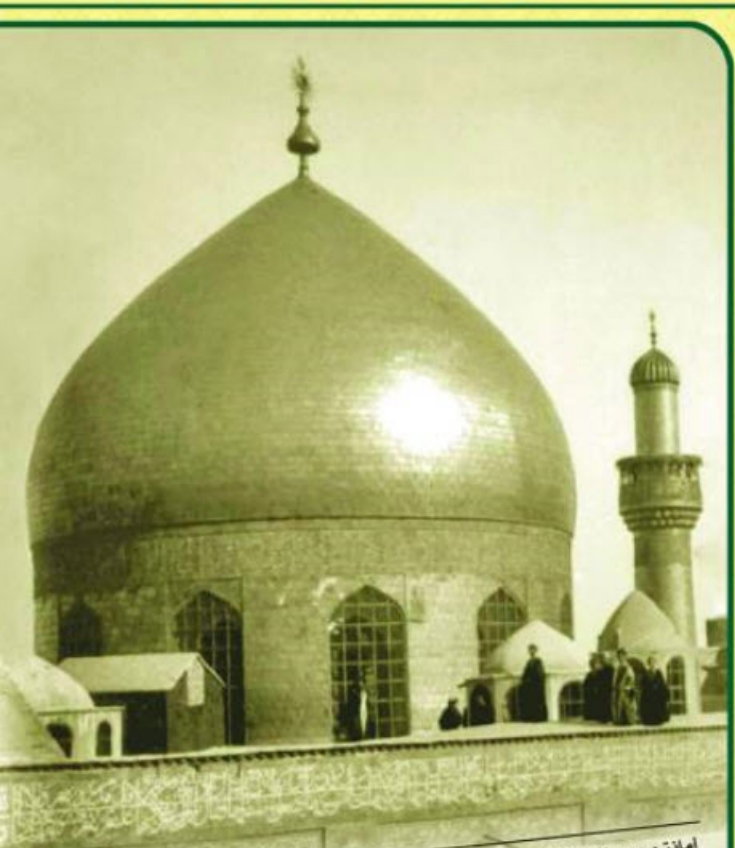

أمانة مسجد المعظم تحتفل بمناسبة مرور ١٤٠٠ عام على اختيار الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)
الكوفة عاصمة لحكومته المباركة عام ٣٦ للهجرة

٥

ديوان الوقف الشيعي
أمانة مسجد الكوفة
والمزارات الملحقة به

المشرف العام
السيد موسى تقي الخلخالي

رئيس التحرير
د. كامل سلمان الجبوري

(١)

حجر بن عديّ

الأستاذ عبد الله السّبيتي

قبل الكتاب

١

أنا الآن بين يدي حادث صارخ طواه الزّمن بين تلافيفه، وقد مرّت عليه قرون وعبرت عنه أجيال وهي تعلن أنّ الحادث قصة دامية هي عنوان النّزاع بين المثالية والمادية، وقد قدّر للمادة أنْ تنتصر في حساب الزّمن ولكنها خسرت في حساب الفضيلة.

كلُّ عابر من شرقي الشّام إلى الغوطة يسمع الصّوت عالياً كقصف الرّعود، ينطلق مدوياً يجلجل في الفضاء ليشقّ طريقه إلى الأجيال، ويترجم إلى القلوب لغة الخلافة يومذاك.

لم تخفف قوة الظّالم من حدة الصّوت، ولا استطاع الحاكم أنْ يحطم المذياع، فالصّوت ظلّ ينطلق في الفضاء حياً مشرقاً يأبى أنْ يموت، كما يأبى أنْ يخاف، يخترق الأسماع وينفذ إلى القلوب حتّى يوم النّاس هذا وإلى يوم يبعثون.

هذه المأساة هي مأساة مرج عذراء.. وكم على صفحات التّاريخ من المآسي الحمر أمثال هذه المأساة تزدحم بها صفحاته؟! تمر عابرة من قصور الخلفاء ولا تحس الأمّة بهذه المآسي، ولا تتحرك لعلاج أسبابها الدّفينة -ويا للأسف- وترك المسلمون -أو أنّهم أكرهوا على ذلك- الخلفاء يتمتعون بمنظر الدّم الكريه يطربون على صلصلة السّيوف.

حُمَّ القضاء، وشقّت الخلافة المسلمين على أنفسهم نصفين: نصف إلى اليمين ونصف إلى الشّمال، والمسلمون منذ لحق النّبي (ﷺ) بالرّفيق الأعلى وهم من أمر الخلافة في فتنة طاغية، تعصف تارة وترقد أخرى، رابضة متحفزة، تهب أعاصير الفتن بين حروفها، وكأنّ تلك الحروف عجنت بالدّم، تسيل المهج على أسلاتها، والقلوب على شفار سيوفها، وللموت رسل آتية ذاهبة بين أسود الغاب وفتيان الضّراب، وهذه الأجسام الرّاقدة في مرج عذراء من ضحايا تلك الأعاصير.

ومن الخير أنْ يفهم النّاس كيف أُريق ذلك الدّم؟ ولماذا أُريق؟ وهل للخلافة أنْ تريق دم حجر الّذي أبلته العبادة!!

حقاً إنّ هذا الحادث الأحمر يحتاج إلى تفكير خاص، وإمعان نظر خاص، ولا شكّ أنّ وراءه سراً وكلما تعمق الدّارسون بالحوادث برزت لهم نواحيه المختلفة، واتضح لهم ارتباط بالحوادث الجاهلية، واتصالها بالعهدين الهاشمي والأموي.

وفي الحق إنّ هذه المأساة كانت صورة من الصّور المثالية النّادرة ترفعت في دنيا الجهاد النّفسي إلى أعلى القمة كما أنّها حكت نفسية أموية مندفعة في سبيل رواسبها الجاهلية.

قال النّاس:

توفي رسول الله (ﷺ) ولم يُعيّن خليفة ولم يبيّن كيف يكون اختياره، وترك الأمر للمسلمين أنْ يختاروا من بعده من يرتضون لدينهم ودنياهم.

ولا يعنينا أنْ نعرف سرَّ هذه المقالة، ولكنّا نستطيع أنْ ندرك أنّها قالة مرّة، أُصيب منها المسلمون بكلّ فادحة موقرة وكانت سبباً لأنْ يتفرقوا شيعاً وأحزاباً يتآمّر بعضهم على بعض ويضرب بعضهم رقاب بعض، وكان الأولى لهم أن لا يقولوها لأنّ عقول النّاس لا تحيط بالمصالح والمفاسد على أقل تقدير.

وفي الواقع إنّ الخلافة في الإسلام لم ترتكز إلا على أساس القوة والرّهبة منذ الصّدر الأوّل، والبحث في هذه النّاحية يبدو خطراً ويكلّفنا كثيراً من البحث قد نخرج به عن

موضوعنا، ولكن الحوادث الّتي مرّت على المسلمين من قتلهم غيلة وصلبهم، تدلّنا على أنّها أثر من آثار الملك الزّمني، فكان الأجدر بهم أنْ يسمّوا الخليفة ملكاً لا خليفة وإماماً.

قد يقع في نفس بعض القرّاء سؤال عن الأسباب الّتي لأجلها أهمل النّبي (ﷺ) أنْ يوصي بعده -كما يزعمون- وما هي الحكمة في ذلك؟ وأستطيع أنْ أقول: إنّ النّاس لا يعرفونَ جواباً لهذا السّؤال! ولا يعنيني الآن بوجه خاص أنْ أتحدّث عن ذلك، لأنّا لا نريد أنْ نُمعن في حوادث ليست من موضوعنا، وموضع هذا الحديث كتابنا: «الحوادث الكبرى» ولكن لا مناص من القول: بأنّه ليس في التّاريخ الإسلامي موضوع كالخلافة ذهب ضحية ترك الوصية بها ألوف.

وكذلك لا أعلم موضوعاً أسفَّ النّاس فيه وساروا في طريق ملتوية كموضوع الخلافة الإسلامية أضاعوا محامدها، وذهبوا بفضائلها، وكذلك ليس في التّاريخ الإسلامي موضوع أسرع إليه الفشل منذ السّاعة الأولى كالخلافة، فإنّها لم تحقق رغبات الإسلام، بل كانت سبباً في إيقاظ الفتنة، توزعت فيها أهواء المسلمين وأغراضهم، وتشكلت الأحزاب، مندفعة في حمم من الأهواء المتعاكسة، وفي التّاريخ ألف دليل ودليل.

كان النّاس لا يسعهم أنْ يستجيبوا للحوادث، ولا عين لهم نافذة تنفذ إلى الحوادث القاسية الّتي مرّت على المسلمين وكان الخليفة هو الّذي يثيرها حمراء دامية، ولووا -كالنعامة- رؤوسهم عن هذه المآسي، وأغمضوا عيونهم عن الأحداث المنكرة المتكررة الّتي ارتكبت باسم الخلافة، وارتكبها الخلفاء أنفسهم.

وأيّ عجب أعجب من أمّة يقول أعلامها: إنّ رسول الله (ﷺ) توفي ولم يعيّن خليفة وترك الأمرَ للمسلمين يختارون ثمّ هم يعتبرون الخلافة مرادفة للإمامة، ويعالنون النّاس بأنّ «الخلافة رئاسة عامة في أمور الدّنيا والدّين عن النّبي (ﷺ)»، وإنّها «في الحقيقة خلافة عن صاحب الشّرع» ثمّ يعللون تسمية الخليفة «خليفة فلكونه يخلف النّبي في أمّته فيقال له خليفة بإطلاق» يقولون ذلك ثمّ لا ينظرون إلى ما يصدر من الخليفة وعمّاله من وقائع لا تتفق مع هذه النّظرية، وبعضها لا تقرها الإنسانية.

ثمّ إنّا نرى أنّ هذه النّظرية لا تثبت أمام البرهان العقلي ومن الهيّن مناقشتها، وهذه التّعابير المصطنعة لا تجعلنا نتناسى ما ارتكب باسم الخلافة من إراقة دماء زكية واستباحة فروج محصنة، وهل كان ذلك بأمر صاحب الشّرع ونيابة عنه؟! إذن من الخطأ والسّذاجة أنْ نعتقد بأنّ الخليفة كان خليفة عن صاحب الشّريعة.

لنترك جميع الأخطاء الّتي أحاطت الخلافة منذ نشأتها، ولكن هل يمكن لمسلم أنْ يتغافل عن الخلفاء الأمويين وعن ما ارتكبوه من المحارم والمآثم؟ وهل ترى في هؤلاء الخلفاء مظهراً من مظاهر الإسلام ونيابة عن الشّارع المقدس؟ أو أنّ تلك المظاهر كانت أثراً من آثار الحكم الرّوماني الّذي قام على القوة المسلحة والقهر والغلبة؟ ولكن أين من ينصف الحقيقة وينصف النّبي والخلافة؟

ويؤسفني -وأنا أدير نظري فيما قالوا- أنْ أرى هؤلاء البسطاء الانعزاليين استساغوا لأنفسهم أنْ يعزلوا نبيهم عن إدراك أبسط الأمور فإنّهم جرّدوه حتّى عن فهم نفسية العصر الّذي عاش فيه فجعلوه لا يرى أكثر من السّاعة الّتي هو فيها ولا يتعدى نظره إلى أبعد مما بين قدميه فكأنّه كان على يقين من أنّ الدّين وصل إلى أعماق قلوب المسلمين حتّى هؤلاء الّذين دخلوا فيه بعد الفتح وقلوبهم مملوءة قيحاً وغيظاً وبغضاً، وهنا أترك القارئ ورأيه يقول ما يشاء ولا يمنعني هذا من أن أعلن بصراحة أنّ هذا غلط فاحش.

لا أشكّ بأنّ المسلمين أساءوا إلى نبيهم (ﷺ) إذ اعتقدوا أنّه ترك الأمر من بعده هملاً ولم يوص لأحد وترك الخلافة نهزة الطّالب، وأرجوحة الطّامع، يتغلب عليها القوي، ويبتزها الظّالم، ويجلس على كرسيها الفاسق الفاجر بل الملحد الّذي لا يمت إلى الإسلام بصلة إلا أنّه خليفة المسلمين -كما حدّثنا التّاريخ عن بعض خلفاء الأمويين- وكان الأجدر بهم أنْ ينكروا الخلافة، وأنْ لا يقيموا وزناً لخليفة لا تقوم خلافته إلا بالقهر والغلبة وإراقة الدّماء البريئة، ويعتبروها ملكية وليس في ذلك خطر على دينهم بعد أنْ زحزحوا الخلافة عن النّص، وبعد أنْ كان لا ملازمة عندهم بين النّبوة والخلافة.

ويبدو غريباً أنْ يترك النّبي (ﷺ) -كما يزعمون- الأمر من بعده للمسلمين فيتركهم في حيرة سادرة وجدل عنيف يدفع بعضهم بعضاً للوصول إلى الحكم، وللحكم صورة ملذوذة تتغلب على النّفوس فتندفع وراء أهوائها، وقد رأينا الخلفاء يبذلون مجهوداً كبيراً في سبيل الوصول إلى الخلافة، ورأيناهم يستغلون الخلافة لمآرب شخصية، وأهواء نفسية، وأغراض حاضرة محضورة بحكم العقل والشّرع، ورأيناهم يندفعون وراء شهواتهم وملاذهم فشربوا الخمر وقتلوا النّفس واستباحوا كلَّ شيء في سبيل ملذاتهم، حتّى كان السّائد بين النّاس في كلِّ عصر ما يدور في قصر الخليفة من خير أو شر، فهل يجوز على النّبي (ﷺ) أنْ يهمل الخلافة وأنْ يكون قاصر النّظر؟! وإذا جاز ذلك -وقد أجازوه- فهل بعد هذا من الممكن أنْ نقول: إنّ الخليفة يقوم مقام صاحب الشّريعة وله الولاية العامة المطلقة وإنّ خلافته خلافة إسلامية نافذة الأحكام.

الخلافة مركز الثّقل تتمتع بأقصى حد من السّيطرة على تنفيذ القوانين الإسلامية، كما أنّها هي القائمة على نشر الحرية والعدالة والمساواة بين النّاس فلا بدّ من أنْ يكون الخليفة هو الرّجل الّذي لا مثيل له في أوصافه الحميدة وعلومه الإسلامية والاجتماعية لتكون حكومة إلهية يستوي عندها القصر والكوخ وتلتقي عند نقطة الاتصال بين الحاكم والمحكوم والفكر والعمل والعاطفة والعقل والدّين والسّياسة والاجتماع والاقتصاد، وبالأخير كلّ شيء يرجع إلى دنيا المسلمين وآخرتهم وفي الحق إنّ هذا لا يكون بالاختيار، لأنّ عقول البشر لا تحيط بالمصالح والمفاسد، والتّاريخ خير دليل على ذلك.

الإسلام دعوة سامية أرسلها الله سبحانه لخير العالم كلّه، أراد أن يربط بها البشر عامة، وهي دعوة لا تعرف فرقاً بين الأمم كافة وكما كان رسول الله (ﷺ) نبياً مشرعاً وجندياً مجاهداً وقائداً يضع الخطط كذلك كان سياسياً محنكاً يدير دفة الحكم بدقة، بعيد النّظر فهل يخفى عليه أنّ السّنوات القليلة الّتي قضاها في التّشريع والجهاد لم تكن كافية لتذليل النّفوس وتحريرها من عوائد أصيلة؟ أو خفي عليه أنّها لم تكن كافية للقضاء على عوامل الوراثة والبيئة قضاءً حاسماً؟!

وهل يخفى عليه أنّ بين المسلمين من هم حديثو عهد بالإسلام لم يؤمنوا إلا حقناً لدمائهم؟ وفي الوقت نفسه هم انتهازيون يتربصون بالإسلام والمسلمين الدّوائر ويتحينون الفرص ويتطلعون إلى عهد سابق وزعامة مدحورة.

وبعد- فهل كان من الرّأي المصيب أنْ يترك الأمر من بعده مهملاً؟! هبوا أنّه كان يعلم أنّ في بعض أصحابه كفاءة - إنْ سلّمنا بالكفاءة- فإنّ ذلك لا يدفع الخطر الماثل من هؤلاء الانتهازيين الحديثي العهد في الإسلام، فإنّه من الطّبيعي لهم أنْ يمدّوا أنوفهم الوارمة للحكم، وهم يشتمّون رائحة السّلطة من عهد قريب ولهم مكانتهم في نفوس قريش، وهكذا كان، فقد رأينا الخلافة مشت في طريقها إلى هؤلاء الحاقدين وتلقفها بنو أميّة تلقف الكرة، وطبيعي لهم أن يمدوا إليها يداً بعد أن وقفوا على كيفية انتخاب الخليفة.

ولا حاجة لنا بعد هذا أن نقول: إنّه لم يكن من الرّأي المصيب أنْ يهمل النّبي (ﷺ) الأمر من بعده -إذا كان ما زعموه- ولقد تبين خطأ هذه النّظرية بما رأيناه من الويلات والمآسي الّتي جرها الانتخاب.

وإذا لم نخطئ هذه النّظرية وذهبنا إلى أنّ رسول الله (ﷺ) لم يعهد عهداً سياسياً وترك الأمر من بعده للمسلمين، ثمّ ذهبنا إلى الاعتقاد بأنّ الخليفة يتوقف عليه إظهار الشّعائر الدّينية وتنفيذ أحكام الشّريعة وإقامة الحدود إذنْ لنا أنْ نتساءل: مَنْ كان المسؤول فيها في عهد معاوية ومن بعده؟ ومن أقامها في هذه القرون المتعاقبة؟ وهل كان قتل عباد الله الصّالحين واستباحة المدينة ثلاثة أيّام وهدم الكعبة وما إلى ذلك بأمر من الشّارع ونيابة عنه؟!

وهل في المسلمين مَن يعرف حرمة تلك النّفوس البريئة والأعراض المصونة ثمّ يذهب إلى الاختيار؟ أحسب أنّ المرمى السّياسي من وراء هذه النّظرية يوشك أنْ يكون مفضوحاً لا يستره شيء.

ويُعجبني ما حدّثنا به ابن قتيبة في الإمامة والسّياسة: من أنّ السّيدة عائشة أرسلت إلى عمر قبيل وفاته تشير عليه «أنْ لا تدع أمّة محمّد (ﷺ) بلا راع، استخلف عليهم ولا تدعهم بعدك هملاً، فإنّي أخشى عليهم الفتنة» ويدهشني من هذه السّيدة الوعي واليقظة على الإسلام والمسلمين، إنّها كلمة حق ونظرة إلى صواب الأمر، وغيرة على صلاح شأن الأمّة، أين كان عنها السّلف في عهد النّبي (ﷺ)؟ وأين كانت هي نفسها عنها في عهد الزّوج الكريم؟ وهل كان يغيب عنهم وعنها هذا المعنى وكان خليقاً أنْ يجول في نفوس المسلمين جميعاً ولعلّه غاب! ولعلّ هذا النّداء كان وليد السّاعة مبعثه الشّعور العميق بفساد ترك الاستخلاف لما رأته من استيقاظ الفتنة بين المسلمين.

إحساس بالغ عند السّيدة ويقظة ووعي ليس لهما مثيل عند كبار الصّحابة كأبيها وعمر وأمثالهما ممن حنكتهم التّجارب فلم ينتبهوا لمثل ما انتبهت إليه كأنّهم كانوا في غفلة عن النّوايا السّيئة الّتي كانت تحيط بالخلافة والمدهش أكثر من ذلك أنّ السّيدة بزّت النّبيَّ (ﷺ) لأنّه هو أيضاً -كما يزعمون- لم يلتفت إلى ذلك وأهمل أمر المسلمين وتركهم كالغنم المطيرة في الليلة الشّاتية.

خاطرة كانت خليقة بأن تجول في ذهن السّيدة يوم مرض رسول الله (ﷺ)، قد مات في حجرتها وبين سحرها ونحرها - كما تقول- ولا أظن أنّ النّبي (ﷺ) حين تشير عليه بمثل ذلك لا يهتم وهو وحده كان يضطلع بالمسؤولية وهو وحده يعرف مدى الجهود الّتي بذلها في سبيل توحيد كلمة العرب، فلا يهون عليه أنْ تستيقظ الفتنة من جديد فيفشل الإسلام.

ومهما يكن من أمر فإنّ هذا الكتاب الّذي بين يدي القارئ قصّة حمراء ارتكبها خليفة من خلفاء المسلمين باسم الخلافة الإسلامية، عصفت في نفسه رواسبه القديمة ثائرة هوجاء، وتدفقت فيها النّوازع الأموية الجاهلية، وكانت أحلام الخليفة الشّحيم تراوده بالسّيادة الّتي ناضل من أجلها الإسلام السّنين الطّوال، وكان يوجّه جهوده إلى هذه النّاحية ويعمل في سبيلها

منذ اليوم الأوّل الّذي تولى فيه إدارة الحكم، لأنّ طريقة الانتخاب فتحت له باباً كان يظن قبل ذلك أنّه محكم الإقفال.

ومعاوية تاجر يجيد فن المساومة ويستعرض النّفوس كما يستعرض السّلع في السّوق، ولكلّ سلعة قيمة على حسب قربها من ميوله وكان يستغل الظّروف والمناسبات على قدر ما تواتيه، وهو حاذق يجيد التّمثيل على الشّاشة، وأيّ واقف على الانتخاب يوم السّقيفة لا يفهم من هذه الاصطدامات مصير الخلافة فكيف بابن هند -وهو المساوم الّذي يجيد فن المساومة والاستثمار- لا يهتدي إلى الطّريق الّذي يصل به إلى المركز المرموق، وقد دلّت السّقيفة على أنّ انتخاب الخليفة يقوم على القوة واللف والدّوران، ومعاوية مساوم ماهر، وتاجر حاذق يعرف كيف تباع الصّفقة في السّوق، ويعرف أيضاً أنّ الأمر أصبح بين القوة والخديعة فما الّذي يمنعه من طلب الخلافة والخلافة يطلبها كلّ من يجيد الحساب، ويعرف من نفسه القوة والقدرة، وما يمنعه من أن يمد يده الشّائكة وأنفه الوارم وهو يجيد الأمرين معاً.

لقد ضاع الحساب.. وهل من شك أنّه بدأ سعايته من اليوم الأوّل بهمّة لا تعرف كللاً ولا ملالاً، يعبد الطّريق وفق ما يريد وقد عمل تحت ظلّ الخلافة جهراً حيناً وسراً حيناً آخر حتّى زمن خلافة عثمان فطاب له الرّيح وأصبح حراً طليقاً يعمل على إعداد الجماهير بصورة واضحة لا يعتد بشيء غير أمويته، وكلّ من عرف معاوية المغلوب في عهد صاحب الرّسالة المنتصر في عهد الخلفاء، وعرف اللّف والدّوران في انتخاب الخليفة، عرف بدون شك أنّ الخلافة واصلة إليه بدون عناء.

أجل، لقد أسرعت إليه هذه الّتي يسميها النّاس خلافة عن النّبي وتطوّر موقف الخلافة تطوراً عظيماً، فقد أنشأ معاوية عصابة أموية للقضاء على الإسلام فتنكر لرجال المسلمين وعبس في وجوههم، وقرر القضاء على الطّبقة الدّينية المرموقة الّتي ساهمت في بناء الهيكل الإسلامي وأخذ السّيف يلمع في وجوه أحرار المسلمين، وعمدت العصابة الأموية تحفر القبور، وتهيئ الأعواد وتدحرج الأصفر الرّنان إلى الأسواق لتشتري الضّمائر فأزاحت بهذا السّتار عن الرّواسب الأموية فاندلعت النّار كبركان هائج وكانت راية هذه الرّواسب قميص عثمان وكان من الضّحايا حجر بن عدي الكندي، وهذا الكتاب يقف على حافة قبره يفحص الدّم المراق ويتساءل لماذا أُريق؟

ولا أريد أن أقول للقارئ: إنّي تحررت من كلّ شيء فكتبت هذا الحادث الدّامي ثمّ يراني تمذهبت وأنا أكتب، ولا أريد أنْ أقول له: إنّي تمذهبت ثمّ يراني متحرراً، والحقيقة وراء هذا وذاك وكلّ ما فعلته أنّي وقفت إلى جانب التّاريخ لا أفرّق بين الرّواية الشّيعية والرّواية السّنية، وكذلك لم أعمد إلى تفسير الحوادث والرّوايات باللوازم البعيدة، نعم كلٌّ ما في الأمر أنّي تتبعت أسباب الحادث قريبها وبعيدها وعلقت عليها بما يناسبها، على أنّي أعترف قبل كلّ شيء أنّي إنسان أخطئ وأصيب ولكنّي لا أتعمد الخطأ كما وأنّي لا أتعمد تعليق الحوادث على أساس العقيدة كما يفعل الكثيرون من كتبة العصر الحاضر من أهل السّنة، فإنّهم ينبذون المصادر الشّيعية لأنّها حزبية عندهم، ويعتمدون على المصادر السّنية لأنّها موثوقة وليست حزبية، ولا أرى من حاجة إلى تزييف هذا القول فإنّه قول مضحك، فالواقع الملموس الّذي يؤيده البرهان ويدعمه «العقل» أنّ المصادر السّنية هي حزبية قبل أنْ تكون تاريخية، قد كونتها الحزبية تكويناً هزيلاً حيناً وبراقاً حيناً آخر ونراها أحياناً لا تتصل بالواقع وإنّما تستقي من منابع سياسية لتكوّن تاريخاً سياسياً لا يتصل بالواقع.

وأخيراً فإنّ هذا الكتاب عرض لحادثة وقعت في صدر الإسلام وتركزت على دعائم هاشمية وأموية، راعيت في سرد وقائعها الأمانة في النّقل والإخلاص للحقيقة وأحسب أنّه من متممات هذا الحادث أنْ نتناول بالحديث القبيلتين الهاشمية والأموية في العهد الجاهلي والإسلامي باختصار وللقارئ الحر المتجرد أنْ يحكم بعد انتهائه من هذا الكتاب وسوف أتقبّل حكمه سواء أكان معي أو عليَّ مع الشّكر.

٢

لا مجال هنا لاستقصاء الحديث عن الهاشميين والأمويين، فإنّ ذلك يستدعي تطويلاً يخرجنا عن موضوعنا من غير مزيد حاجة تدعونا إليه، ونحن نريد أنْ نكفكف من أطراف الموضوع ما استطعنا ذلك، ونكتفي هنا باليسير منه مما يمت بأسباب موقعة مرج عذراء، والحديث عن حجر بن عدي شهيد مرج عذراء.

توطئة: إنّ أهم الوسائل الّتي عنيت بها الأديان هي الأخلاق العالية والفضائل النّفسية، ولم تكن عناية الكتب السّماوية بالفضائل تفكهاً، وإنما سيقت آيات الفضائل لتوضيح قواعد الاجتماع، وبيان سنن الله في خلقه، لإصلاح الإنسانية إصلاحاً عادلاً طاهراً نقياً يقرّبها إلى أقصى حد ممكن من المثل العليا.

ولا شك بأنّ الفضيلة هي المقياس الصّحيح للمفاضلة بين شخصين أو قبيلتين كما لا نشك بأنّ الفضيلة ناموس كياني يتقدم بالمجتمع إلى منتهى الكمال الإنساني، وهبة العقل الكامل إلى الإنسان إنّما يكون عن طريق النّفس الكريمة، ولا نريد هنا

أنّ نحدّد مفهوم الفضيلة أو نحدد موضوعها، فإنّها -عندي- وراء التّحديدات والتّعاريف، ولعل الفضيلة تسخر بالحدود المنطقية لأنّها أوسع من أفق المنطق، وأصدق ما يعبر عنها: «الكمالية في الأعمال الإنسانية الّتي تقرب المجتمع من المثالية» وكلّ مقياس يتجاوز الكمال النّفسي لا بدّ أنْ يكون خاطئاً بنظر العقل وبتعبير صحيح لا يختلف موضوعها بنظر العقل وهي عنده سواء في الماضي والحاضر، وسبيل النّفس إليها سبيل واحد لا يختلف عند العقل، والفضيلة تضيء جوانب النّفس كلما سما الإنسان بأعماله، ويظلم أفق النّفس ويحتجب عنها النّور كلّما نزل الإنسان إلى سفاسف الحياة ومخازي الأعمال، وهذه لا تختلف عند العقل، وليس باستطاعة الزّمن أنْ يفرض حكمه على مفهوم الفضيلة فيدخل فيه ما ليس منه، ولا اعتبار بالتّقاليد الّتي تسيطر على بعض العقول لتجعل من الرّذيلة فضيلة فإنّ ذلك قد يكون نتيجة لملاحظات خاطئة تجاوزت على الأغلب الغريزة وحدودها الطّبيعية.

والمعوّل في الفضيلة على المعنى الواقعي من القيم الإنسانية ولا اعتبار في الألفاظ الّتي تدور على الألسن، فإنّها لا تدلّ على الواقع إذا كانت لا تتصل بالقيم الاجتماعية، ولا يليق أنْ نخدع أنفسنا ونخدع المجتمع البشري فنصرف الفضيلة إلى اعتبارات وهمية ثمّ لا نجد بعد ذلك المرفأ الأمين لترسو عليه سفينة الحياة، ولا نكون عدونا عن جعل الفضيلة بعيدة عن السّمو الذّاتي والقيم المثالية الّتي يقدسها النّاس ويحترمون قواعدها.

ومما يسيء إلى المجتمع أنّ كلمة الفضيلة استعملت في غير معناها مما أدّى بها إلى السّقوط والاضمحلال كأن لم يبق في عرف النّاس قاعدة لتمييز الخير من الشّر، والفضيلة من الرّذيلة، ومعنى هذا أنّا قد طويناها في سجل أسماء المفاهيم الّتي لا مصاديق لها في عالم الواقع المحسوس، وسقطت من قائمة الوعي الإنساني النّبيل، وشطبت من سجل الأعمال.

أليس من الغباوة أن نعتقد أنّ الشّر خير، وأنّ الانغماس في الشّهوات فضيلة؟ وعلاوة على ذلك يضع الإنسان في قائمة حساب «القيم الاجتماعية» عدداً من الأعمال الّتي لا يشرف عليها عقل ولا يقرها عرف، وإنّما يراعي فيها التّقاليد الّتي توارثها الإنسان ويحسب أنّها من مصاديق الفضيلة، والبلاء كلّه في خبث النّفوس وشرها على أقل احتمال.

ولا نريد أن نقف متهيبين أمام عنصر الخير والشّر، فإنّهما عنصران لا يقبلان الجدل والمراء، ولا يقبلان الاختلاف في الحكم عليهما بنظر العقل مهما اختلفت الآراء في موضوعهما، وللشرع والعقل في موضوعهما حكم يستحيل أن يقبل التّردد أو الانعكاس، بمعنى أنّ الخير يكون شراً والشّر يكون خيراً، وإذا فرض ذلك فإنّما هو لملاحظات خاطئة تتصل بنوازع النّفس والحقيقة لا تخفت صوتها شهوات النّفوس ونوازعها، والفضيلة دائماً تعرف بالرّجوع إلى أصول الآداب والأخلاق، وهذه بمجموعها لا تختلف باختلاف العصور ولا باختلاف البيئة، فهي أصيلة في البشر منذ عرف الإنسان معنى الحياة ومعنى الآداب والأخلاق، والاختلاف أحياناً لملاحظات خاطئة لا ينزل «الفضيلة» من برجها العاجي ولا يوجب اختلافاً في حقيقتها والإحساس «بالفضيلة» إنّما هو على قدر الإحساس بالنّواميس الإنسانية، وهذا الإحساس هو مصدر عظمة الإنسان، ولا شك بأن من تجرّد من هذا الإحساس فقد هوى من برج الإنسانية العالي إلى أحطّ مرتبة تجعله والبهيمة سواء.

ولا شك أنّ هذه القيم الإنسانية الّتي تعاقبت عليها أجيال وقرون تختلف مراتبها من سامٍ إلى أسمى، ومن عالٍ إلى أعلى.

وكذلك الغرائز في الإنسان تختلف فبعضها معتدلة تعمل في تغذية النّوع والأفراد، وبعضها فاسدة تسيء لنفسها وإلى المجتمع.

وإذن ليس بالشّيء الجديد أنّ ينكب إنسان عن الطّريق السّويّ، ويسيء إلى نفسه وإلى المجتمع، ويميل عن القيم الاجتماعية مندفعاً مع لذاته وشهواته يعمل في سبيلها ثمّ يخيل إليه أنّه ملتزم جانب الآداب العامّة، وأنّه يطوي في سجل حياته تاريخاً مجيداً وآداباً رفيعة.

والآن وبعد هذا – نستطيع أن نلمس الفرق بين القبيلتين الهاشمية والأموية، وإذا كان المحور في المفاضلة هو الفضيلة فقد فاز الهاشميون، وتزحلق الأمويون إلى هوة سحيقة، ويصح أن يقال: إنّه لم يبق وجه للمفاضلة بينهما، لأنّهما لم يلتقيا في الطّريق أبداً، لا في جاهلية ولا في الإسلام ولا في ناحية من نواحي الإنسانية.

فالهاشميون خلقوا للأريحية والمثالية، والأمويون للنفعية والإجرام الهاشميون للعفة والنّزاهة، والأمويون...

الهاشميون للنّبوة والإمامة والأمويون للملك العضوض والسّياسة الميكيافيلة.

الهاشميون للدعوة إلى الله والحق والأمويون للدعوة للات والعزى والباطل، أولئك في كلّ أدوارهم، وهؤلاء في كلّ أدوارهم.

خطتان في الحياة العملية انتهيتا إلينا أرقاماً حسابية، وليس في هذه الأرقام ما هو موضع شكّ، والعملية الحسابية صحيحة النّتيجة حتماً.

أجل لا وجه للمفاضلة بين القبيلتين، فإنّه لم يكن للأمويين فضل قط ولم يلتق الأمويون مع الفضيلة في ناحية من نواحيها، والتقى الهاشميون معها في جميع نواحيها، ولكنّها السّياسة، السّياسة في عصر متأخر شاءت أن تقارن بينهما وشاء أنصار الأمويين أن يجعلوا منهم قبيلاً يضارع الهاشميين «مع العلم بأنّهم لم يختصوا بمزية محمودة تقابل نظائرها من مزايا الهاشميين» حتّى في الإسلام بالمعنى الصّحيح فإنّ للشك في إسلامهم مجالاً واسعاً اللّهم إذا استثنينا أفراداً لا يتجاوزون عدد الأصابع، وهؤلاء تمردوا على قومهم فلم تتصل طبائعهم بطبائعهم ولم تمتزج أخلاقهم بأخلاقهم.

التّنافس بين القبيلتين أصيل وعهده قديم يتصل بهاشم وأمية الفرعان لعبد مناف – إن صحّ التّعبير فإنّ في الأمويين شبهة[1] – فقد نافر أميّة هاشماً وعبد المطلب فباء بالفشل، ونافر حرب عبد المطلب فرجع خاسراً، فإنّ المنافرة بينهما لم تكن بين متقاربين ولا متقابلين، ولذلك رجع أمية بالعبودية، وحرب بالخسران وهكذا رأينا التّنافس يتصل بأبي سفيان ومعاوية وسلالة الأعياص، بيد أنّه لم يحالفهم التّوفيق في جولة من جولات المنافسة، ولم يثبتوا لها في جاهلية ولا إسلام.

وليس بالأمر الغريب هذا الفشل حين نرجع إلى المقاييس والمعايير، فإنّك سوف لا تجد في حصة أميّة من المناقب والمفاخر والفضائل والأخلاق ما يتقدم به إلى كفة الميزان، فإنّه كان إباحياً عاهراً سارقاً وكان قد أعدّ نفسه منذ صغره لحياة إباحية أثيمة مليئة بالنّقائص والرّذائل، ولعله كان أحرص خلعاء مكة على الخلاعة وأشدهم تمسكاً بالمنكرات والإباحية الرّعناء وقد حدثونا: «إنّه نزل عن زوجته لابنه أبي عمرة» وهل من منكر وراء هذا المنكر ليزيد عليه، أو نقيصة تساوي هذه النّقيصة؟! وأظنّ أنّ الجاهلية لا تعرف إباحية منكرة وراء هذه الإباحة، ولا أسلوباً من النّقائص أحطّ من هذا الأسلوب المنكر الّذي لا يلتقي مع الأخلاق العربية في سبيل من السّبل.

إنّها خطة أثيمة يواكبها أميّة في طريقه إلى الحياة ولم يكتف بالعواهر والمومسات وإنّه في غمرة هذه الحياة الذّميمة انطلق يدنس الحرائر ويريب المخدرات من وراء خدورهن وخذ مثلاً ما روي: إنّه اعترض امرأة من بني زهرة بريبة فأثارت حفيظة بعض الزّهريين فخرج إليه وضربه بالسّيف فبلغ الأمويين ما صنع الزّهري فهبوا محنقين، ونهضوا لإخراج بني زهرة وإجلائهم عن مكة، ولكنّ قيس بن عدي السّهمي غضب لأخواله بني زهرة، ودوت صرخته «أصبح ليل»، فذهبت مثلاً، ونادى متحدياً «الآن الظّاعن مقيم» فانكفأ الأمويون على أعقابهم خاسرين.

ولعله إلى هذا أشار نفيل بن عدي حينما رأى عبد المطلب وحرباً مقبلين عليه متنافرين فقال لحرب منكراً: «أتنافر رجلاً هو أطول منك قامة وأعظم هامة وأوسم منك وسامة وأقل منك ملامة[2] وأكثر منك ولداً وأجزل منك صقداً وأطول منك مذوداً».

أبوك معاهر وأبوه عف وذاد الفيل عن بلد الحرام

هذا أمية شخصية جمعت عجباً من النّقائص سايرته ولم تنفصل عنه اتصل بها واتصلت به منذ حبا ودرج في الحياة مندفعاً إليها من وراء الحواجز العربية جريئاً غير متهيب ولا منكر ويلوح لنا أنّ نفسية أميّة لم تكن معزولة عن بنيه وإنّما كانوا يحتذونها خطوة خطوة في كلّ أفعالهم كالصّورة المتكررة لأصل معلوم لا تشذّ إلا ببعض «الرّتوش».

أمّا الهاشميون ففي الأغلب مثاليون أريحيون لهم مع هاشم ملتقى في كلّ ناحية من نواحي الإنسانية الكاملة، يستوحون أخلاقه ومآثره في أقوالهم وأفعالهم، فتنزهت مقاصدهم، وكرمت سرائرهم، وأطلوا على المجتمع القرشي بوجوههم الكريمة، وأفعالهم الرّحيمة، كما يطل الرّبيع على الدّنيا القاحلة، يقول العقاد: «فكان الهاشميون سراعاً إلى النّجدة، ونصرة الحق، والتّعاون، ولم يكن بنو أمية كذلك فتخلفوا عن حزب الفضول الّذي نهض به بنو هاشم وحلفاؤهم» وقد كان بنو هاشم يعملون في الرّئاسة الدّينية وبنو عبد شمس يعملون في التّجارة والرّئاسة السّياسية، وهما ما هما في الجاهلية من الرّياء والمحاكمة والغبن والتّطفيف والتّزييف.

«والأخلاق المثالية تؤم الرّياسة الدّينية.. فإن لم تكن في بني هاشم موروثة –وهي موروثه– من معدن أصيل في الأسرة فهي أشبه بسمة الرّياسة الدّينية... وإنّك لتنحدر مع أعقاب الطّالبيين أبناء علي وفاطمة (عليهما السلام) مائة سنة ومائتي سنة وأربعمائة سنة ثمّ يبرز لك رجل من رجالها فيخيل إليك أنّ هذا الزّمن الطّويل لم يبعد بين الفرع وأصله في الخصال والعادات كأنّما هو يعد أيّاماً معدودات لا تعدّ بالمئات وراء المئات من السّنين».

أجل لا نجد توازناً بين القبيلتين ولا يستطيع أن يسير الأمويون بسيرة الهاشميين لأنّهم لم يركبوا كما ركب الهاشميون فإنّ هؤلاء كان للدين سلطان في تكوينهم على حين كان لفساد الأخلاق تأثير في تكوين أولئك، فالقبيلتان مختلفتان

(١) أشرنا إليها في كتابنا عمار بن ياسر.

(٢) في شرح النّهج لأمه وهو غلط.

في أصل النّشأة والتّكوين بقدر الاختلاف بين النّشأة الدّينية والنّشأة الجاهلية قف إلى جانب هاشم الجذع العربي فإنّك سوف تقف على حياة حافلة المآتي بالخير لقومه، وتفيض بألوان البر وأكداس من المثل الإنسانية والقيم الاجتماعية والاقتصادية والسّياسية وتحتفل بضروب من الخلق العربي الكريم ثمّ دعه إلى عبد المطلب شيبة الحمد، وزعيم الوادي وسيد العرب لتقف إلى منار يهتدي الضّلال بسنا جبينه الوضاح وعبقري سما إلى القمة من كمال وجلال.

ثمّ دعه إلى شيخ الأبطح الّذي لم يؤخذ عليه طوال حياته قول، ولم ينقص بفعل ولم يخفر له ذمام.

استقبل أبو طالب حياة صاخبة فيها كثير من الجفاء وقد استخف بذلك الصّخب استجابة لإيمانه وللحفيظة الهاشمية، استقبل الصّخب بكثير من المرونة والحنكة واحتمل جفاء قريش عامة والأمويين خاصة بقلب كبير وصبر ثابت وسياسة رشيدة، لو نظر النّاس إلى أبي طالب نظرة صحيحة.

كل أحد يعلم أنّه ليس في صفات بني الإنسان صفات كاملة حقيقة بالإكبار والتّقدير والإعجاب هي أهم من الإيمان وتعظيم الحق وحماية الجار والجلاد في وجه الظّلم، وكلّ هذه الصّفات تجلّت في أبي طالب واجتمعت في شخصه.

لقد عرف النّاس جميعاً أنّ أبا طالب كان قوة للدعوة الإسلامية، وأنّه مهّد الطّريق لها وليس أدلّ على ذلك من التّحول الفجائي في سياسة قريش بعد موته حتّى انتفض على النّبي (ﷺ) جماعة ممن أسلموا، فأمره الله سبحانه بالهجرة إلى المدينة تخلصاً من إيذاء قريش.

ثمّ قف إلى جانب الحمزة وجعفر وغيرهما من أحفاد عمرو العلا وشيبة الحمد فإنّك دون شك تقف بين عباقرة مناجيد مشبوبي الجذوة، فازوا في دنيا المجد والكمال النّفسي بأوفر سهم، وبلغوا في دنيا العبقرية أعلى القمة.

هؤلاء هم الهاشميون في جاهليتهم وإسلامهم.

وإلى أين ينتهي الباحث في أعقاب أمية؟!

دع السّياسة الّتي أرادت أن ترفع من قدر الأمويين جانباً وصياغة الأباطيل الّتي أرادت أن ترفع من مقامهم، دع هذه جانباً واذهب إلى ما بقي لنا من سطور التّاريخ فإنّها تجار بأنّه ليس لهم تاريخ مجيد، ولا رأي سديد ولا شجاعة حميدة «ولا حفاظ ولا جوار، ولا نبل، ولا عفة، وإنّما كانوا المثل الصّحيح للجاهلية في أوضارها وأوزارها وموبقاتها» يقول الجاحظ

«ليس لهم قدم مذكور، ولا يوم مشهور، فلا سابقة ولا جهاد وإذا كان شيء من هذا فإنّما يكون فيما يضر النّاس».

لقد انهزموا في جاهليتهم شر هزيمة أمام الهاشميين لأنّهم لم يكن عندهم من الكفايات ما يتساوى في كفة الميزان مع كفايات خصومهم الهاشميين.

ولكن لم ينقطع أملهم فإنّه لا يزال معلقاً بخيط من عوده، والأمل عند النّفوس اليائسة خفيف سرعان ما يتملكها إذا رأت بوادر النّجاح، وليس أصدق صورة للنفس الأموية في كفاحها الهاشميين من تلك الصّورة الّتي رسمها عميدهم أبو سفيان حينما سنحت له الفرصة المواتية يوم صدع محمّد (ﷺ) بالدّعوة إلى الله سبحانه فقد هب الأمويون ثانية إلى كفاح الهاشميين يوم انطلق صوت رسول الله (ﷺ) يدعو النّاس إلى توحيد الله وإلى العدل الاجتماعي، كأن يكون النّاس سواسية كأسنان المشط فلا فرق بين العبد والحر، والغنيّ والفقير والقويّ والضّعيف.

ريح جاءت طابت لأبي سفيان فهذا محمّد يدعو إلى جعل الآلهة إلهاً واحداً وهؤلاء الهاشميون التفوا حوله فما باله لا يستأنف سيادته بجوهرها ومظهرها فإنّه لم يتخل عن نفسياته ولا عن مطمحه قط؟! ولكنّه سترهما وراء الدّفاع عن الأصنام الّتي تعلو الكعبة، أعلن الكفاح مستخدماً الحقد القديم وقاد المعارضة واشتد في الخصومة، ووضع في طريق النّبي الهاشمي الصّخور والأشواك حتّى أصبحت مكّة تتلظى في أتون ضريم يتأجج ناراً حامية.

ولكنّها حركة لم يكتب لها النّجاح وقوة الدّعوة أوقفت ابن حرب على قدميه بعد أن أطافت بما يملكه من مال وعتاد فجرفته إلى هوة سحيقة، وفي هذه المرة أضاف في سجل الفشل القديم قتلى أعزاء عليه كان يندبهم ليل نهار ويندبهم معه ابنه معاوية وبنو أمية ولم ينس يوماً قتلاه، ولكن ريح النّصر الهاشمي ظلت حولهم تدوي وتعصف وتهب عليهم سموماً تلفح الوجوه ونالت منهم ما نالت وغشيتهم غاشية الخذلان وضيق عليهم الإسلام فوقعوا أسرى في يد محمّد (ﷺ) فكانت الضّربة في هذه المرة أشد وأقوى ولكنّهم استقبلوها ببسمة حاقدة مستسلمين لئلا يخطفهم الموت واحداً بعد واحد.

لم يسلموا قط ولم يشتموا رائحة الإسلام قط وإنّما تظاهروا بالإسلام يدفعون عن أنفسهم لئلا يسترخصها الموت وفي ساعة تحوّل التّيار إلى غير ما يشتهيه أبناء أمية لم يعدم ابن حرب صوتاً يخرج من فم البار الرّحيم محمّد بن عبد الله (ﷺ) يجدد له أملاً في الحياة المناضلة مرّة ثانية أو ثالثة فإنّه لم ينس قط هذه السّيادة الّتي خلص من أجلها نهراً من دم ولم ينس قط الضّحايا في بدر، ولا يزال يشتم رائحة الدّم المسفوح، ومن اليوم الأوّل أخذه الفكر في استرجاع مجده وسيادته.

أمّا إنّه لم ينس مجده وإنّه عاش عهده كلّه وهذا رائده فيدل عليه قوله حينما ولي الخلافة عثمان «يا بني أميّة تلقفوها تلقف الكرة فوالّذي يحلف به أبو سفيان، مازلت أرجوها لكم، ولتصيرن إلى صبيانكم وراثة».

وأمّا إنّهم لم يكن إسلامهم صحيحاً فليس على الباحث إلا أن يضع أعمالهم في البوتقة وكما يدّل عليه قول أبي سفيان لما سمع بلالاً يؤذن على ظهر الكعبة «لقد أسعد الله عتبة بن ربيعة إذ لم يشهد هذا المشهد».

وقوله يوم بيعة عثمان «فوالّذي يحلف به أبو سفيان ما من جنّة ولا نار» وكلمته المشهورة يوم وقف على قبر الحمزة ابن عبد المطلب فرّ كلّه برجله وقال: «انهض أبا يعلي فإنّ الملك الّذي قاتلتنا عليه أصبح في أيدينا».

ولا أراني في حاجة إلى التّعليق على هذه القالة وكذلك لا أرى من حاجة أن نسير في أعقاب الأسرة الأموية فإنّ الأحفاد ورثوا الأحقاد، وأعادوا إلى الحياة ذلك الصّراع القديم الّذي طواه الإسلام، واستوى معاوية قائماً على قدميه متمرساً بالخلافة واندفع يحدوه حقده وتدفعه رواسبه إلى تمهيد الطّريق لأسرة عبد شمس على ملك طويل عريض ومضى الأمويون من ورائه يعملون له في الأقطار الإسلامية ولم يعنهم إذ ذاك على أمويتهم، ومعاوية يرسم الخطط ويشق الطّريق ويبني الصّرح السّياسي بالوسائل الّتي يراها ذات جدوى ونفع فقرب ذوي الأطماع والّذين غلب على نفوسهم سلطان المادة وبادر بالسّيف يضرب وجه أولئك الّذين كانوا يضربونه على باطله ويحشدون له صفوفاً من الرّماح والسّيوف فصلب على جذوع النّخل وقطع أرجلاً وسمل عيوناً ودس سماً وحفر قبوراً.

وبحق نقول: إنّه كان يستوحي أمويته ورواسبه في كلّ أعماله، ولم يكن قتل حجر انتصاراً لعثمان وإنّما انتصاراً لأمويته، ولم تكن صفين انتصاراً لعثمان – وقد خذله في اللّحظة الأخيرة- وإنّما كانت انتصاراً لأميّة من هاشم ومهما حاول المحبون أن يخفوا هذه الحقيقة فلا أراهم ينسلون خيطاً من الشّبكة الّتي كانت تنسجها قريحة معاوية ودهاؤه إلا ويتضح لهم أنّه مغزول بمغزل أموي ليحيك شبكة محكمة يصيد بها خصوم أمية واحداً واحداً، وحجر وأصحابه ذهبوا ضحية هذا الصّراع المستمر كما ذهب غيرهم من قبل.

علي ومعاوية خصمان في الله ولا شك.

وهذا خصمان اختصموا بربهم ولا شك.

أمّا عليّ (عليه السلام) فإنّ هذا الوحي الّذي كان يصابح النّبي (صلى الله عليه وآله) ويماسيه كوّن منه شخصية لم يعرف التّاريخ الإنساني لها نظيراً في إنسانيته المتحرجة الزّاهدة، ولم يعرف ضميراً كضميره، وقد بلغ من حرص النّبي (صلى الله عليه وآله) عليه أنّ ضمّه إلى كنفه منذ صغره، وأخذ يمارس تربيته بنفسه، ويحصر اهتمامه بتنمية عواطفه عن طريق الدّين، فاجتمعت له صفات ومناقب لم تجتمع لأحد غيره، وكونت معه مثلاً أعلى للإنسانية الكاملة، وللتربية الفاضلة، والسّياسة الرّشيدة، ومن شاء أن يعرف كيف تكوّن الثّقافة الدّينية أبطالاً، ومن أراد أن يعرف كيف تُنشِئ الشّمائل المحمدية عباقرة، ومن شاء أن يعرف كيف تُنشِئ التّربية المحمدية أئمة فلينظر إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ربيب النّبوة وعضو الأسرة المحمدية، قدوته الرّسول العظيم، وأستاذه القرآن الكريم.

فعلي (عليه السلام)، نفحة إسلامية سرت في شرق الأرض وغربها، في كلّ مصر وكلّ قبيل في العلم والأخلاق في الإيمان والآداب في العبقرية والبطولة في السّلم والحرب في كلّ هذه تبصر علياً وتحس بآثاره وتتلمس عظمته «ما هذا بشر إن هذا إلا ملك كريم».. لا إنّه إنسان.. إنّه الإنسان الكامل علي بن أبي طالب، إنّها التّربية النّبوية تلمسها في علي (عليه السلام).. وليس وراء ذلك من عظمة أو بطولة.

حسب علي (عليه السلام) أنّه ابن أبي طالب، وحسبه أنّ من ذكر علياً فقد ذكر أسمى الصّفات: النّزاهة، الاستقامة، الشّجاعة، الصّراحة، النّبل، القوّة، العظمة، الفتوة، النّجدة، العفة، الزّهد، الورع، الإيمان الكامل، الجهاد في سبيل العقيدة الرّاسخة.

وحسبه أنّه ربيب النّبوة وعضو الأسرة المحمدية فهو أخو الرّسول وزوج البتول – ولم يكن للبتول في المسلمين كفؤ سوى علي- كما حدثنا بذلك الرّواة الثّقات.

ولد علي (عليه السلام) في مكة في البيت الحرام وهو أوّل هاشمي ولد من هاشميين وأمّه فاطمة بنت أسد يقول العقاد: «فاجتمعت له خلاصة الصّفات الّتي اشتهرت بها هذه الأسرة الكريمة وتقاربت سماتها وملامحها في كثير من أعلامها وهي في جملتها: النّبل والشّجاعة والمروءة والذّكاء عدا المأثور في سماتها الجسدية الّتي تلاقت أو تقاربت في عدّة من أولئك الأعلام».

ليس من الهيّن على نسوة قريش الحاملات أن يدخلن بيت العبادة للولادة ولم يكن ذلك ميسوراً لامرأة قط مهما كانت مكانتها، ولكن فاطمة بنت أسد دخلت بيت الله لتلد علياً فيه وهذه خاصة من خواص علي (عليه السلام) تفرد بها ولم يجاره فيها أحد، وفي هذه الخاصة ما يفصح عن سموّ المولود وعظمته وتمييزه.

سمته أمّه حيدرة باسم أبيها أسد والحيدرة الأسد ولكن هذا الاسم لم ينل حظوة عند شيخ الأبطح فإنّه يريد اسماً لمولوده أبلغ في الدّلالة على سموّ المولود في البيت الحرام، والولادة في البيت إيذان بسموّ المولود وتقدير لعظمته.

وتنبعث من نفس أبي طالب إشعاعة يرسلها الإلهام فيسمي ولده «علي» ولم يكن هذا الاسم شائعاً عند العرب يوم ذاك ولعلّ أبا طالب ألهمه إلهاماً، وأبو طالب ملهم من قبل ومن بعد والأرجح -عندي- أنّ أبا طالب التجأ إلى النّبي (ﷺ) وطلب إليه أن يسمّي المولود فألهم هذا الاسم المبارك الأغر - كما ورد في الرّوايات- فيكون من إلهام النّبوّة ومحدثات الرّسالة السّماوية، وهذا دون شك من آيات عظمته فإنّه ولد في الكعبة وسماه النّبي (ﷺ) واشتق له اسماً من العلو، وإنّ عرضاً موجزاً لحياة علي أمير المؤمنين (عليه السلام) كفيل بأن يرينا أنّه ما من خطوة خطاها في حياته ولا خطة احتذاها إلا وكانتا تسيران به إلى العلو وفق الاسم المبارك الأغر فالعظمة رافقت في كلّ أدوار حياته في السّلم والحرب في المحراب وبين الحراب في الكوخ وبيت المال.

«كانت الكلمة العليا في علي (عليه السلام) للأخلاق العليا والفضائل المثلى وعلى ضوئها شق طريقه في الحياة وراح يهيئ نفسه لأمثل حياة تتفق مع بيته الرّفيع وشخصيته الفذة وبدأ من أوّل حياته يسير على الخطط الّتي استخلصها من مربيه الأمين محمّد رسول الله (ﷺ) وكان النّبي وحده مثله الأعلى وأعماله هي النّبراس المنير الّذي سار على ضوئه طوال حياته منذ طفولته حتّى السّاعة الّتي فاضت فيها نفسه الزّكية سواء في هذا ما اتصل بمظاهر الحياة العادية أو ما كان ينم عن اتجاه خلقي معين أو نزعة نفسية أو دينية ولم يكن لديه مقياس في الأعمال والأقوال سوى القرآن وسيرة النّبي (ﷺ) فهو بحكم مولده وبحكم تربيته ورث مناقب النّبوّة ومواهب الرّسالة وبلاغة الوحي وقوّة الإيمان فتجمعت فيه أخلاق محمّد (ﷺ)، ومحمّد تجمعت فيه أفضل الأخلاق وأسمى الصّفات وهو أشرف مخلوق وأعظم إنسان وفوق كلّ إنسان وعلي (عليه السلام) بحكم الوراثة والتّربية سمت شخصيته وتعاظمت نفسه فكان بعد النّبي (ﷺ) أفضل إنسان»[1].

من كانت له القدرة على الموازنة والمحاكمة ثمّ استعرض الحوادث التّاريخية الّتي اتصلت بالمجمع الهاشمي وزاولها بالمقدار الّذي يسمح له فهمه للأشياء يبدو له أنّ الهاشميين كانوا من قديم أصحاب وجدان ديني وأنّ التّوجيه الدّيني كان يغلب على ضمائر الكثيرين منهم تركزت فيهم عقلية دينية هادئة وديعة تعترف بالله وثوابه وعقابه يندفعون إلى المثل العليا من القيم الإنسانية الّتي هي وليدة الشّعور بالنّواميس الاجتماعية ونتيجة للإحساس بالتّضامن الاجتماعي في ظلّ النّوع فكانوا أسرع النّاس معونة لمن يحتاج إلى المعونة وكانوا أعطى النّاس وأسخاهم، فالهاشميون بحكم الطّبقية وحكم التّربية مالوا إلى التّخصص بالشّؤون الدّينية وبحكم هذا التّخصص كانت لهم تربية خاصة لا تتصل بمن حولهم وبحكم هذا التّخصص كان لهم مظهر ديني ومظهر وجداني يميزانهم عن غيرهم فلم يبق من سبيل إلى سلطان الإثم والفحش والظّلم أن يتسرب إلى نفوسهم ولم يدخل الفسق والعهر إلى بيوتهم.

علي (عليه السلام) بحكم هذه الوراثة كان غنياً بما تراكب في دمه من الورثات المتصلة على طول حبل النّسل الممدود، مضافاً إلى ذلك تلك الكفايات الّتي استمدها من مشاهداته الكثيرة.

فعلي (عليه السلام)، تقدم إلى الحياة بقلب كبير مثقل بمتارك الوراثة، وساعد هذه الغرائز النّفسية الوراثية لون التّربية في الطّفولة، فإنّه لما أصاب القحط قريشاً طلب النّبي (ﷺ) من عمّيه الحمزة والعباس أن يحملوا بعض ثقل أبي طالب ويعاونوه على تحمل الأعباء في تلك الأزمة الشّديدة فجاؤوا إليه وطلبوا منه أن يدفع إليهم ولده ليكفوه أمرهم فقال:

«دعوا لي عقيلاً وخذوا من شئتم» فأخذ العباس طالباً والحمزة جعفراً وأخذ النّبي علياً وكان عمره خمس سنوات.

وقد أراد النّبي (ﷺ) أن يخرج الطّفل مثالاً للإنسانية المهذبة الرّفيعة ويعده للإمامة الكبرى الّتي سيعقدها له.

حفل النّبي (ﷺ) بالطّفل الجديد الّذي ضمه إليه، وانصرف إلى تربيته على الشّكل الّذي أراده الله سبحانه من تربية نبيه وكان النّبي (ﷺ) يحاول أن يفرغ في نفس الطّفل ما اجتمع له من ملائكة ربه الّذين وكّلهم بتربيته فكان يمضغ الشّيء ثمّ يلقمه إيّاه، ويرفع له في كلّ يوم علماً من أخلاقه ويأمره بالاقتداء به، وكان لهذه التّربية قوتها في نفس الطّفل، وكانت مصدر عظمته.

ولا نكاد نشك بأنّ النّبي (ﷺ) كان يعنى بعلي (عليه السلام) عناية خاصة لا تقاس بها عنايته بشيء آخر من أموره كلّها، يعنى منه بتغذية الرّوح والعقل قبل تغذية الجسد.

ولا غرابة إذنْ، إذا خرج علي من هذه المدرسة وهو مثال رفيع للتربية الرّفيعة، خرج يحمل في يمناه آداب القرآن، وفي يسراه أخلاق رسول الله (ﷺ)، خرج وللدين سلطانه في اختيار الحياة له، فهو إذَنْ في كلّ أدوار حياته كان يتقلب بين سلطان الدّين ومتارك النّبوة، فكان على نصيب كبير من العظمة، والمزايا النّادرة، لا ينكر ذلك منصف، ولا يكابر فيه إلا معاند.

وإنْ أعجب من شيء فإنّي أعجب من أولئك الّذين ينكرون عليه سياسته كأنّهم لا يعتدون بهذه الوراثة وما اقترن بها من تربية ومشاهدات خرج من بينها وهو أعلم إنسان بكلّ ما يدور حوله، وأفقه إنسان في تشريع الله، وأعظم إنسان مارس الحياة.

(١) ملخص بتصرف عن كتاب الإمام علي بن أبي طالب.

ولا يسع المنصف بعد هذا إلا أنْ يحكم بأنّه التّقى مع الفضيلة بكلّ نواحيها، وفي الحياة بكلّ مرافقها، وبالسّياسة في كلّ أشكالها، إلا أنّه كان يحجزه عن السّياسة المخادعة الملتوية حاجز من أمر الله تعالى.

فعلي بحكم إنسانيته إنسان، ولكنه بحكم تربيته ملاك طاهر انحنت الإنسانية أمام عظمته وقدس طهارته.

وعلي (عليه السلام) بحكم تربيته وبيته اكتملت فيه صفات القدس والرّجولة الصّادقة فكانت له: الشّجاعة، الكرم، النّزاهة، السّماحة، النّجدة، العفة، الزّهد، وكانت له الإمامة ووجوب الطّاعة، ولكن كان فيه شدة في الدّين وشدة الخصومة في الله، وهذه الشّدة لم ترض قريشاً والعرب، وحيث كان ذلك فلا مجال لأن يترك علي وشأنه بل من السّخف أنْ يخطر لنا على بال أنّ قريشاً تترك علياً، إنّها خطة مدبرة ولا حيلة لعلي في دفعها وهي التّركاضة في خصومته وكلمة واحدة من السّيدة عائشة وهي «ليت السّماء أطبقت على الأرض إنْ تمَّ الأمرُ لعلي» قالتها لما بلغها أنّه بويع بالخلافة تعطينا صورة عن ما في نفوس القريشيين يكاد يبرز فيها وجه الماضي سافراً فالحقد هو الحقد، ومن هنا يعلم المنصفون أنّها خطط محكمة التّدبير تركزت على الكراهية لعلي وهي لا يمتحن بها إنسان في رأي أو عمل، وإنّما يمتحن بها السّيف والرّمح ولكنّهما ليسا من مصلحة الإسلام، فصبر وفي العين قذى.

صلى مع النّبي (صلى الله عليه وآله) ولم يكن أحد على وجه الأرض يصلي بصلاته سوى خديجة أمّ المؤمنين (عليها السلام) وبات على فراشه ليلة الهجرة فادياً له بنفسه، ومن ذا الّذي يقوم هذا المقام الرّهيب؟ ومن الّذي ينام على فراش من ورائه السّيوف المسلولة؟ ومن الّذي تسخو نفسه بمثل هذا الفداء؟

جاء في الحديث: إنّ الله أوحى إلى جبرائيل وميكائيل أنّي آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من الآخر، فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة به فاختار كلاهما الحياة، فأوحى إليهما أفلا كنتما مثل علي بن أبي طالب؟ آخيت بينه وبين محمّد فنام على فراشه وفداه بنفسه وآثره بالحياة، فاهبطا إلى الأرض واحرساه من أعدائه، فهبطا، فكان جبرائيل عند رأسه وميكائيل عند رجليه، وجبرائيل يقول: بخ، بخ يا علي مَنْ مثلك يباهي الله الملائكة به[1].

ثمّ لحق برسول الله (صلى الله عليه وآله)، ومعه الفواطم بعد أنْ أدّى الأمانات على أهلها وسدّ ديون النّبي (صلى الله عليه وآله) ورافقه في جميع غزواته، وكان في كلّ غزوة قطب الرّحى، ولقد قتل في بدر سبعون رجلاً، قتل (عليه السلام) النّصف من السّبعين وفيهم شيبة والوليد والطّغاة من قريش.

وعلي بلغت فروسيته غايتها المثلى فهو الشّجاع الّذي لم يبارزه أحد إلا أرداه ولم يرهب قرناً من الأقران بالغاً ما بلغ من القوة والسّطوة، والشّجاع الّذي لا يبالي إذا وقع على الموت أو وقع الموت عليه.

وأنا موقن- ومن لا يوقن بأنّ رائحة هذه الدّماء المسفوحة في بدر كانت تثور في أنف معاوية يوم صفين وفي كلّ يوم فيثأر لها من علي (عليه السلام)، وهي ذكرى مؤلمة كانت تقضّ مضجع معاوية وتثير حقده، ومن ناحية فإنّ معاوية يعلم أنّ سلطان الأمويين انطوى مع مصارع شيبة وعتبة والوليد، وأنّ علياً (عليه السلام) هو الّذي طوى ذلك السّلطان بالانتصارات الّتي حازها في بدر وأُحُد والأحزاب.

وإذنْ فالحركة التّمردية الّتي دبرها معاوية كانت متأثرة بأمويته دون شك ولم تكن صفين جهاداً في سبيل الله أو في سبيل الإسلام ولا هي طلباً بدم عثمان، فإنّ بعض قتلته بين سمعه وبصره، وقد ساومهم على تقسيم بلاد المسلمين، ومعاوية نفسه -لو أنصف النّاس والمؤرخون- أعان على قتل عثمان على أقل تقدير، فإنّه كان يستطيع إنقاذ عثمان من القتل، ولقد أضاع الفرصة عمداً وفق خطط مرسومة تنفيذاً لنوازع نفسية معلومة.

وأنا موقن أيضاً، بأنّه لم يقتل حجراً لأنّه سبَّ عثمان أو أعان على عثمان، وإنّما قتله وقتل أمثاله من أهل الإيمان وحماة الإسلام تمهيداً لأمويته الجاهلية، فإنّه كان يطوف به طائف من أمويته يدعوه في الصّباح إذا أصبح وفي المساء إذا أمسى إلى توطيد الحكم الأموي وإرجاع سلطان الأمويين، ولم يكن ليهمه الإسلام في قليل أو كثير، وإنّما يسعى جهده لإزاحة هؤلاء النّفر من طريقه ليعيدها أموية، وفي التّاريخ شواهد كثيرة ولا ريب -وعندي- أنّه لو قدّر لمعاوية أن يعيش ويمتد به العمر لقضى على الإسلام وقد يكون في المسلمين مَنْ مَهّدَ له طريق ذلك.

كان أمير المؤمنين علي (عليه السلام) شديداً في الدّين لم يعرف عوجاً قط اتخذ لنفسه الإسلام منهجاً في الحياة ولم يفارق هذا المنهج قط وامتاز بين السّابقين الأولين بأنّه نشأ نشأة إسلامية يطبق منهاج حياته وأعماله عليها ومعلوم أنّه لم يُعنَ أحد من صحب النّبي (صلى الله عليه وآله) عناية علي (عليه السلام) في تطبيق الأحكام الشّرعية، ولم ينهج واحد منهم منهجه، فإنّا نعلم أنّه كان للسياسة سلطان على أعمالهم بالرّغم من كلِّ ما يلوح من

(١) رواه أحمد في مسنده وابنه عبد الله في فضائله عن ابن عبّاس، وأبو نعيم في حليته عن عبد الله بن سعد عن أبيه سعد والثّعلبي في تفسير قوله تعالى ومَنْ يشرِ نفسَه ابتغاء مرضات الله الآية من تفسير الكشفان والبيان.

البساطة فيها، ولعل الفاحص يجد أنّه كان في النّفوس نزعة دنيوية صامتة وتبدو جلية في المناسبات والمصادفات، وأنّها كانت تسير وراء ستار من السّياسة تظهر بأنّها من أمثل السّياسات ولكنها في واقعها انحرفت عن جادة الصّواب، وكانت سبباً للخبط والشّماس والتّلون والاعتراض كما صرح بذلك سيد البلغاء أمير المؤمنين (عليه السلام).

وأمّا علي (عليه السلام) فلم يكن كذلك، فقد اجتاز الدّرب الملتوية ولم يهف قلبه في حياته كلّها لغير العدل الاجتماعي وكان سبيله تلك الرّسالة السّماوية، التزم مناهجها يافعاً وشاباً وكهلاً ولم تغب عن قلبه لحظة واحدة، وكان يقول: «يا دنيا غرّي غيري لقد طلقتك ثلاثاً» «وإنّها لأكثر من كلمة وأكثر من دعاء.. وعنوان حياة»[1]، أنبأتنا عنه سيرته منذ اليوم الأوّل الّذي عرف فيه الحياة.

وكان سلام الله عليه طودَ حِلمٍ وعَلَمَ عِلْمٍ وميزان فقه بين صحب النّبي (صلى الله عليه وآله)، يشيرون إليه بالأكف والأصابع.

يقول عبد الفتاح عبد المقصود: «إنّ فضله بين أصحاب رسول الله كان ثابتاً لا مريّة فيه، وإنّ علمه كان مأثوراً استفاء به كلّ أولئك الأعلام فكان لأمور دينهم ودنياهم الظّل الأورف، وإنّ حبّ رسول الله إيّاه رفعه على رؤوس كافة المسلمين، وبوّأه مكانة عزت على سواه، بهذا وبغيره من مزاياه الخلقية، ونواحي شخصيته الرّحبة كان جديراً أن يصبح على رأس الدّولة منذ اليوم الّذي خلت فيه الدّنيا من صورة ابن عمّه الكريم».

هذه حقيقة أيّدتها سيرة علي (عليه السلام)، ولكن من الشّجاع القوي الّذي يقتحم الخندق ليكشف عن نوايا قريش ويعلن الأسلوب الّذي انتهجته في اختيار الخلافة؟ ومن الّذي يستطيع أن يقول بصراحة: إنّ المبدأ الّذي ألتزمته قريش هو الخروج على آل رسول الله (صلى الله عليه وآله) ونزعها حقهم من أيديهم كرهاً؟ ثمّ سارت في طريقها تضطهد هذا الحق بحرية وصراحة لا تخشى أحداً!

بيد أنّه في ساعة الاضطهاد العنيف الّذي لاقاه علي (عليه السلام) كانوا يعترفون له بالأفضلية، ويعترفون أنّ بيده ميزان القضاء والإفتاء، وإنّه صاحب الرّأي الحاسم في السّاعة الشّديدة ويشهد عمر بذلك حيث يقول: «لا بقيت لمعضلة ليس لها أبو الحسن».

ولقد رَدّد لسانه ذلك مرّات وسجل عليه التّاريخ مرّات يقول: «لولا علي لهلك عمر».

(١) العقاد.

كان يقولها في ساعة يحس بأنّه يحيق به الخطر فيرجع إلى علي (عليه السلام) حيث لا يرى غير أمير المؤمنين ملجأ يلجأ إليه.

وهذا أبو بكر يقول على المنبر: «لست بخيركم وعلي فيكم».

يقولها ولكن السّياسة تدفعه لأنْ يسير في الطّريق وإنْ كان ليس بخير المسلمين، وكذلك تدفعه سياسة الحرمان أنْ يتنكر له في السّاعة الأخيرة فيوصي لأبي حفص وإنْ لم يكن له حتّى الإيصاء وإنّما تنكر له هذا التّنكر لأنّه رأى لعمر حقاً حين استخلفه -كما يقول عبد الفتاح- بيعة ببيعة ويوم بيوم السّقيفة.

وهذه السّيدة عائشة الّتي كانت تنقم على علي (عليه السلام) مدة حياته حتّى عندما بلغها خبر وفاته أنشدت:

ألقت عصاها واستقر بها النّوى...

ومع ذلك فإنّها لا تمتنع أنْ تجيب حين تُسأل، أيُّ النّاس أحبُّ إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فتجيب: «فاطمة من النّساء، وزوجها من الرّجال».

ولا تمتنع أيضاً أن تقول - وهي الّتي ما ترددت قط في فض القلوب عنه - «إنّه خير الخلق والخليقة وأقربهم عند الله وسيلة»[2].

إنّها الحقيقة تأبى إلا أنْ تبدو للأعين واضحة جلية لا يسترها حجاب إنّها جد عالمة أوضح العلم، مؤمنة أشدَّ الإيمان، واثقة تمام الوثوق «إنّه خير الخلق والخليقة وأقربهم عند الله وسيلة» غير أنّ عوامل شتى كانت تتدافع في النّفس تندفع معها السّيدة يمنة ويسرة.

رشحه النّبي (صلى الله عليه وآله) للإمامة العظمى يوم الدّار، أو قل بايعه على أنْ يكون خليفة من بعده، ووصياً على أمّته في السّاعة الأولى الّتي أعلن فيها الدّعوة حينما نزل عليه الوحي بآية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾.

امتلأت الدّار ببني عبد المطلب وبني هاشم وذوي المكانة من قريش، وقد لاحقتهم الخواطر تهمس همسات ناعمة تندفع من وراء خلجات القلوب، ماذا يريد الصّادق الأمين من وراء هذا

(٢) في الجزء الأوّل من شرح النّهج ص٢٠٢: في مسند أحمد عن مسروق قالت لي عائشة إنّك من ولدي ومن أحبهم إليّ فهل عندك علم من المخدج فقلت نعم قتله علي بن أبي طالب في مكان يقال لأسفله النّهروان.. قالت أبغني على ذلك بينة فأقمت رجالاً شهدوا عندها بذلك، قال فقلت لها سألتك بصاحب القبر ما الّذي سمعت من رسول الله (صلى الله عليه وآله) فيهم فقالت سمعته يقول إنّهم شر الخلق والخليقة يقتلهم خير الخلق والخليقة وأقربهم عند الله وسيلة -وعنه: إنّ عائشة لما عرفت أنّ علياً قتل ذي الثّدية- قالت: لعن الله عمرو بن العاص فإنّه كتب إلي أنّه قتله بالإسكندرية إلا أنّه ليس يمنعني ما في نفسي أنْ أقول ما سمعته من رسول الله (صلى الله عليه وآله) فإنّه قال يقتله خير الخلق بعدي.

الاجتماع؟ فإنّ محمّداً أبعد ما يكون عن مجالستهم وأبعد ما يكون عن لهوهم ويعرفونه لم يعرف الجد أصدق منه، حتّى في المواقف الّتي تحسن فيها المجاملة إنّه لا يدع المجاملة سبيلاً إلى قلبه فماذا يريد؟

ولم يمهلهم النّبي (ﷺ) إلا ريثما أكلوا وشربوا فتقدم إليهم بابتسامته الهادئة تنطلق من محياه الشّريف وقال: «قد أمرني ربي أنْ أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر وأنْ يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم»؟

فلم يستجب له منهم أحد وتجللوا بالصّمت وأعياهم النّطق ولووا رؤوسهم يستظلون بكبريائهم وجاهليتهم عن سماع صوت الله.

لاحت على الوجوه سحابة قاتمة طالت وامتدت إلى التّراشق بالكلام الفجّ من زوج أمّ جميل حمالة الحطب ولكن فتى وسيماً لم يتم عليه العقد الأوّل من عمره أو هو في مفتتح العقد الثّاني تململ في موقفه وامتلأت نفسه غيظاً على سراة قريش المجتمعين وجنح لابن عمّه ومربيه لأنّه لم تمل نفسه عن نصرته؟ ومن وراء ذلك نصرة دين الله، وتقدم متهيئاً للقيادة على النّهج الواضح من رسالة الله عزّ وجلّ، تقدم ثابت الجنان مندفعاً بحماس الإيمان والعقيدة الرّاسخة وقال: «أنا يا رسول الله عونك، أنا حرب لمن حاربت وسلم لمن سالمت».

وكاد الملأ من قومه أن يتندر بالسّخرية من هذا الصّوت الرّقيق، أو تندروا ساخرين، أمّا الواقع فلا ينكر.. فإنّ الصّوت دوّى مجلجلاً في القلوب والأسماع رهيباً في التّنكيل ينذر بالصّاعقة، وهو بمجمله وعي إنساني يندفع من القلب إلى القلوب سواء من قريب أم من بعيد ومن ورائه قوة الإيمان وعزيمة أبي طالب وسطوة الهاشميين، ولئن برز علي (عليه السلام) مسلحاً بقوة الإيمان، فإنّه مسلح أيضاً بقوة جنانه وشدة ساعده موفور القوة والعزيمة إلى أبعد حد.

ولم يبق مجال للتردد فإنّ مقياس الاختيار قد وضح ورجحت كفة الميزان في جانب الفتى الوسيم المتحمس لإيمانه برسالة ربه، فإنّ أولئك السّراة من قريش لم تصب الرّسالة من نفوسهم مكاناً، فتقدم رسول الله «فوضع يده على رقبة الغلام وقال: هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم»[1].

بيعة الدّار لم تكن هي الأولى والأخيرة فإنّ النّبي (ﷺ) استمر في تركيزها في النّفوس بشتى الأنواع وفي سائر المناسبات بالرّغم من السّحب القاتمة الّتي كانت تخلق جواً من الحقد في النّفوس.

أجل، تلاحقت المناسبات ولم يهمل رسول الله (ﷺ) مناسبة منها وفي كلّها يعلن عن سمو مقامه وعظيم فضله فيقول: «سلم علي سلمي وحربه حربي»، ويقول: «علي مني بمنزلة الرّأس من الجسد»، ويقول: «يا علي أفلا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى»، ومرة يأخذ بضبعه من فوق أحداج الإبل فيرفعه للناس ليتبينوه ثمّ يقول: «ألست أولى بكم من أنفسكم فيقولون نعم فيقول من كنت مولاه فعلي هذا مولاه اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره»، وآخر هذه المناسبات يوم الحجرة في مرضه الّذي توفي فيه حين قال: «آتوني بدواة وقرطاس لأكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً».

ضاقت الصّدور بموقف النّبي (ﷺ) حينذاك وأستكت أسماع من الصّوت فإنّه مرّ على الأسماع كالرّعدة القاصفة امتحنت قلوباً ونفوساً أصابها منه خوف أيّما خوف فإنّ القرطاس وثيقة البيعة الّتي لا تريدها قريش، فوقفوا دون ما يريد، ومرّ الصّوت في طريق شائكة ملتوية ثقيلاً يعاني ما يعاني من حيرة، ويعاني عند القلوب الحاقدة ما يعاني من عنت فلا يستطيع أنْ يجتاز الطّريق إلى القرطاس والدّواة، وليس أصعب عليهم من هذا الكتاب الّذي سيقف في طريقهم إلى النّهاية فجأرت قريش بالخلاف وتجاوب المكان بصدى صوت منكر استجاده الكثيرون منهم ثمّ طوي الأمر.

قريش تحسب لفوز الهاشميين كلّ حساب والكتاب سيقرر لهم الفوز إلى النّهاية هذا أوّلاً.

وثانياً: علي نفسه، أليس هو الّذي وضع السّيف بكلاكل العرب وكسر نواجم قرون قريش؟ وهذا سفر الماضي مفتوح بين يديها يثير الحقد، فالنّفوس تغلي منه غليان المرجل والقلوب تطوي بين تلافيفها حقداً تجيش به النّفوس.

وهكذا خفت الصّوت وذهب ذهاب أمس عندما أنطفأ المصباح ودفع علي عن حقه أوّلاً وثانياً وثالثاً.

هذا علي.. وهذه قريش..

٤

أمّا معاوية: فهو خبٌّ ماكر في نسبه شبهة من قريب ومن بعيد، حسبه أنّه ابن أبي سفيان بن أمية وحسبه أنّ أمّهُ هند آكلة الأكباد بنت عتبة، اشتبه في عفافها وهي تحت الفاكهة ودخل عليها الرّيب وهي تحت أبي سفيان، وهو عدو الإسلام في البداية والنّهاية بحكم الوراثة.

ولد في مكة على فراش أبي سفيان، وتربى تحت جناحه فتجمع في شخصيته عاملا الوراثة والبيئة فكونتا منه شخصية معادية للإسلام والنّبي (ﷺ).

(١) حياة محمّد الدّكتور هيكل في ملحق السّياسة عدد ٢٧٥١، وجميع المؤرخين وعند بعضهم: فاسمعوا له وأطيعوا.

ليس في صفاته الموروثة وغير الموروثة ما يدفعه إلى المركز المرقوق غير هذا الحقد الّذي طواه بين تلافيف قلبه.

أمّا الصّحبة -ولم يكن لها في الصّدر الأوّل ذلك الشّأن- فلم تزد من قيمته، إنّه لم يبرهن عن إسلام صحيح، بل لم يعترف المسلمون الأوّلون له بصحبة، وإنّما تألّفه النّبي (ﷺ) وأباه وأخاه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً سواء قبل فتح مكة أم بعده وحتّى في عهد أبي بكر كانوا من المؤلفة قلوبهم.

أسلم يوم فتح مكة، ومن المقطوع به أنّ إسلامه وإسلام أبيه وأخيه كان حقناً لدمائهم فقط ومعلوم أنّهم كانوا يحسبون غلبة الإسلام غلبة للهاشميين على الأمويين فيلهبهم الحقد، وكلّ ما أخذوا به من مظاهر إسلامية كان إخفاء للحقيقة وراء هذا السّتار الحديدي، وأمويتهم أسمى أهدافهم، وهي الخطة الّتي ألتزمتها الأسرة وألتزمها معاوية، يعلم في سبيلها في عهد عثمان بل وقبل عثمان.

لم يكن للصحبة في الصّدر الأوّل صوت، وإنّما ارتفع لها هذا الصّوت العالي في القرن الثّاني يوم استحكمت السّياسة وتداخلت مع العقيدة الدّينية، يوم أراد فريق من المسلمين أن يتغلّب على فريق آخر، فاتخذ الصّحبة سياجاً يحمي من ورائه الخلافة عن أن ينالها زيف أو يصيب الخلفاء حيف.

على أنّه ليس من لوازم الصّحبة القداسة، وليست الصّحبة ثوباً كهنوتياً لا يُمس، فالقداسة والطّهارة خارجتان عن الصّحبة، ومرجعها الواقع في كلّ صحابي فيقدس الصّحابي على مقدار علاقته بالله والإسلام فمن السّخف إذنْ أنْ نجعل من الصّحبة خطة إيجابية لتقديس كلّ رجل شاهدَ النّبيَّ أو صاحبه فلا يكون مسؤولاً حتّى لو خان أو غدر أو نافق أو ارتكب الكبائر وأصرَّ على المعاصي.

وإذنْ لم يبق في أيدي النّافذين مقياس يقيسون به التّفاضل بين الصّحابة، وكلٌّ ما هناك من أسباب التّرجيح فهي أقرب إلى الفشل منها إلى التّفضيل لأنّ الصّحبة تحول دون نصب الموازين واعتبار المقاييس، وإذا كانت الصّحبة سلاحاً نافعاً كما يقول أنصار معاوية- فلماذا لم تكن سلاحاً لأولئك المنافقين الّذين مردوا على النّفاق لعدم الفرق بين صحبتهم وصحبة معاوية؟

ويعلم النّاس جميعاً أنّ الوليد بن عقبة من أصحاب النّبي (ﷺ) بالمعنى المعروف للصحبة، وهو فاسق بنص القرآن المجيد في مقامين، وليس ابن عقبة الوحيد إذا ذهبنا وراء أسباب فسقه، ولا نجد فرقاً بين الوليد ومعاوية من النّاحية الّتي أوجبت التّعبير عنه بالفاسق.

ومهما يكن من أمر فإنّ هذه الملاحظة القصيرة تدلّنا على أنّ الصّحبة لا تكون حصناً مانعاً ولا تقرّر عدالة ولا توجب للصحابي احتراماً ما لم يكن أخلص لله في إيمانه وأحسن الصّحبة وعمل صالحاً، ونصح لله ولرسوله في السّر والعلانية ومعاوية لم يكن كذلك، بل هو من الّذين حادوا الله ورسوله وارتكب الموبقات والعظائم والتّاريخ أكبر شاهد.

وأمّا كتابة الوحي، فإنّها عجيبة من عجائب تبصبص المتزلفين إلى الأمويين فهم الّذين أنعموا على معاوية شرف كاتب الوحي ونحلوه هذا اللّقب، وإنّها بدعة لم تُعرف قبل عهد معاوية ولم يعرفها أحد من المسلمين، وليس أبعد عن طبائع الأمور في عهد النّبي (ﷺ) من أن يكون معاوية الحاقد كاتباً للوحي ودلالة الحوادث تنفي ذلك نفياً باتاً.

إلا أنّ بعض العلماء جهلاً منه بالنّصوص الصحيحة والمحاكمات التّاريخية تلقف ذلك فأغدق عليه شرف كاتب الوحي والحقيقة أنّ معاوية لم يكن كاتباً للوحي، ولعله كان يكتب للنبي أحياناً في بعض الحوائج، وفي إثبات ما يجيء من الصّدقات، على أنّ هذا محلّ للقيل أيضاً لأنّ النّبي (ﷺ) كان ينظر إلى الأمويين نظرة ارتياب في صدق إسلامهم وإلى معاوية نظرة ازدراء، وقد ورد أنّ امرأة استشارت النّبي (ﷺ) في التّزويج من معاوية فقال لها: إنّه صعلوك.

وحدّثونا أنّ أبا سفيان أقبل على جمل -أو حمار- ومعاوية يقوده ويزيد ابنه يسوقه فرآه النّبي (ﷺ) فقال: «لعن الله الرّاكب والقائد والسّائق».

ومسلم في صحيحه في باب من لعنه النّبي (ﷺ) روى أنّ النّبي أمر ابن عبّاس أنْ يدعو له معاوية مرتين وفي كلّ مرة يخبره بأنّه يأكل فقال: «لا أشبع الله بطنه» فاستجاب الله دعاء نبيّه فكان يأكل ولا يشبع، ولم يذكر في الحديث أنّه لعنه ولكن ذكره في باب من لعنه يدلنا على أنّه لعنه، وإلا لم يصح ذكره في الباب على أنّ ذلك ورد من طرق أخرى.

وبعد – فمن المجازفة بالحقيقة أن نتخذ من رواية بعض المتزلفين إلى معاوية دليلاً على أنّ النّبي (ﷺ) أتخذه كاتباً للوحي وهذا ما تأباه طبائع الأمور، وتأباه الأدلة، ويأباه التّاريخ.

معاوية كان داهية ماكراً، وسياسياً متلوناً، خصب الآمال متطلعاً إلى الخلافة بأنف وارم، وقد يكون هناك من لا ينكر عليه ذلك، ولكن هل يمكن التّوفيق بين حقيقة معاوية والخلافة ولم يكن ليخفي على أحد ممن عاصره رأيه في الدّين، وفي نوازعه النّفسية غني عن التّعليل وسوق الأدلة والشّواهد كثيرة على أنّه كان من أهل الدّنيا يعمل لأمويته فقط وقد عرفه المسلمون يوم كان والياً ويوم كان خليفة وعرفوا أنّه أقام سلطانه على دعامتين اثنتين:

١- اعتمد على البطش برجال الإسلام قتلاً وصلباً وسمّاً وكان يقتل على الظّن والتّهمة.

٢- على بذل أموال المسلمين في سبيل أموية جاهلية، فكان يشتري الضّمائر والأديان من الرّجال الّذين يبيعون دينهم وضمائرهم وخذ مثلاً لذلك:

دخل عليه أبو المنازل مع جماعة من الزّعماء فأعطى كلّ واحد منهم مائة ألف، وأعطى أبا المنازل سبعين ألفاً فقال أبو المنازل:

«فضحتني في تميم يا معاوية، أمّا حسبي بصحيح؟ أو لست ذا سن؟ أو لست مطاعاً في عشيرتي؟ - بلى: - فما بالك خسست بي دون القوم؟».

- إنّي اشتريت من القوم دينهم ووكلتك إلى دينك ورأيك من عثمان:

- وأنا اشترِ مني ديني... فأمر له معاوية بتمام جائزة القوم.

وأوّل ما نلاحظ أنّ معاوية كان تاجراً يحاول أن يفسد على المسلمين دينهم وضمائرهم بالنّظار الوهاج، ونلاحظ ثانياً أنّ هذا لم يكن ضعفاً في البائع فقط وإنّما هو ضعف في المشتري أيضاً، كما هو ضعف في البائع على السّواء وليس في سوق التّجارة أهون من هذه الحيلة الخبيثة الّتي لا تقف عند ذوي الأطماع بل تتجاوزها إلى ضعاف العزائم الّذين لا يثبتون على رأي.

هذا يدلنا على أنّ التّركيز الأموي هو الّذي كان يسيّر معاوية ومن قبل كان التّركيز القبلي يساير أبا سفيان وبين يديه. ولداه يزيد ومعاوية فأخذوا يعملون بدافع شهوة الحكم الّتي نمت بقلوبهم أعواماً، وقاتلوا الإسلام عليها أعواماً وأخذ أبو سفيان يتبين الطّريق للوصول إلى السّلطان عن طريق الحكم الإداري ففتحوا لهم طريقاً عند الخلفاء أو قل فتحت الخلافة لهم الباب على مصراعيه وحازوا حظوة عندهم فتقدّموا للإدارة وأخذوا يعملون على إعداد الجماهير سراً وجهاراً، وكان يزداد نفوذهم رويداً رويداً تدفعهم رواسبهم لإبعاد الهاشميين، وساعدتهم السّقيفة وكيفية انتخاب الخليفة أن يمدّوا أنوفهم إلى الخلافة.

ولما هلك يزيد خلفه أخوه معاوية على الشّام وقد بلغ كلاهما أقصى ما يريد لأمويته وانتهيا إلى أبعد غاية ولم يتهاون معاوية في إعداد الشّام لليوم الموعود، ولم يكن معاوية يوماً زاهداً بالخلافة ولذلك نراه لم يتردد في الثّورة عندما رأى الهرج في المدينة وعلم أنّ السّلطان سيعود لبني هاشم إن هو استسلم للحوادث، وهو الّذي لم ينس أمويته وسيادته الّتي سلبه إياها الإسلام، ومعاوية حاذق يعرف كيف يستخدم المناسبات ويعد الجمهور ويعرف كيف يقف أمام الخليفة ببذخه وخيلائه ولا يتهمه عمر.

وأجاد معاوية تمثيل الفصول على الشّاشة ولا نظن أنّ أحداً لم يفطن إلى مقاصده فإنّ قريشاً تمالئه على هذه الفصول، وفي كتاب أمير المؤمنين إلى أخيه عقيل، ما يشير إلى ذلك:

«دع عنك قريشاً وتركاضهم في الضّلال وتجوالهم في الشّقاق فإنّ قريشاً أجمعت على حرب أخيك إجماعها على حرب رسول الله (ﷺ)».

أجل، قريش فسحت له المجال، وقد كان - في عهده الأوّل- يشق طريقه مطمئناً واثقاً ويبني صرحه على أساس محكم رصين، يعمل والخلافة تلوح له أن ليس عليه من جناح فيما يعمل لأمويته وليس عليه جناح أيضاً في أن يجمع المال والسّلاح ويهيئ النّفوس، فإنّ الخليفة عمر أغضى بطرفه عنه بحجة أنّه في الشّام أقرب أرض المسلمين للإمبراطورية الرّومانية فلابدّ أن يظهر بالمظهر الأنيق، وعثمان أطلق له الصّراح في خراج الشّام يعمل فيه ما يشاء فكان «يجذ ب الأقرباء والأولياء، ومن يرجي منهم العون ويخشى منهم الخلاف، فالنّهاية معلومة من مطلع البداية»[1].

وليس أدلّ على أنّهم كانوا يعملون لأمويتهم منذ دخلوا في الإسلام تحت سمع الخلافة وبصرها من «تغيير السّياسة دفعة واحدة ومن أساسها في عهد عثمان»، والسّياسة تأبى كلّ الآباء هذا الانقلاب السّريع إذا لم يكن هناك تدبيرات سابقة قوية واسعة النّطاق، وعثمان الشّيخ الضّعيف أساء إلى نفسه وإلى الخلافة، فعلم معاوية الدّاهية أنّ إساءة عثمان لا تنجلي عن خير، فلذلك تركه والسّيوف تلمع من الشّرق والغرب والدّخان ممزوج بالشّرر يتصاعد من فوهة البركان الملهب في وسط المدينة في حجرة من حجرات أزواج النّبي (ﷺ) ومن دور أخرى على اتصال من وراء السّتار بتلك الحجرة، تركه وخفّ مسرعاً إلى الشّام ولم ينجده - وكان بوسعه أن ينجده- ولكنّه أخذ يعدّ العدّة للساعة المترقبة ومعاوية يجيد العملية الحسابية ويحسن التّدبير والشّام رقعة واسعة وإقليم كبير من أقاليم الدّولة الإسلامية غني بخيراته ورجاله، وغنيّ بحصونه الطّبيعية، وقد دأب معاوية قرابة ربع قرن على إعداده - والشّام بأحد اعتباراتها أموية يعتصم بها الأمويون منذ القديم، وقد اعتصم بها أمية من قبل يوم خرج مغلوباً لخصمه هاشم، وكانت عش الأمويين سنين طوال.

---

(١) العقاد.

حدّثنا المحدثون عن عمر أنّه كان شديداً صلباً وكان يعطي عمّاله درساً قاسياً فلا يفسح لهم مجالاً ولا يترك عاملاً في عمله طويلاً ثمّ كان يحاسبهم حساباً شديداً على قاعدة ما يسميه ساسة العصر «من أين لك هذا؟» إلا معاوية فإنّه لم ينقله ولم يحاسبه وأقام والياً على الشّام عشر سنين في عهد عمر.

ومعاوية لم يكن له رأي في عمله غير العمل لأمويته ولا هدف يهدف إليه سوى تهيئة النّفوس وتربية النّاشئة حسبما يوحي إليه طموحه من إعادة سلطانه المفقود يتوسل إلى ذلك بكل وسيلة يراها ذات جدوى، فكان يبذل المال ويقرّب الأعوان لذلك فقط وأمّا استكمال الجهات الحلقية والدّعوة إلى الإسلام فذلك أبعد ما يكون عن معاوية والياً وخليفة، وهذا واضح غاية الوضوح لا يحتاج إلى إقامة البرهان وحسبنا في ذلك ما ذكره المؤرخون عنه يوم دخل الكوفة وقال: «ما قاتلتكم لتصوموا أو تصلوا.. وإنّما قاتلكم لأتأمرّ عليكم فإنّ في هذا ألف دليل ودليل على أغراضه الّتي كان يريش السّهام من أجلها».

أجل، لم يغب مغزى هذا عن بال أحد قبل أن يجري على لسانه، وإنّ أمويته الّتي وقعت جريحة يوم بدر ويوم فتح مكّة لاتزال تستصرخه ولازالت تلك الدّماء المسفوحة تثور في أنفه وليس هذا وهما من نسيج الخلاف، أو وحي الخيال، وإنّما هو الاستقراء الصّحيح يسير إلى جانب معاوية كما تسير الأرقام في العملية الحسابية، يقول العقاد:

«فإنّ معاويّة لم يعمل في الشّام عمل وال يظل والياً طوال حياته، ويقنع بهذا المنصب ثمّ لا يتطاول إلى ما وراءه، ولكنّه عمل فيها عمل صاحب الحكومة الّتي يؤسسها ويدعمها له ولأبنائه من بعده فجمع الأقطاب من حواليه، واشترى الأنصار بكلّ ثمن لديه، وأحاط نفسه بالقوّة والثّروة».

وهل خفي على عمر ما كان عليه معاوية -وهو الحساس-؟ هذا ما لا نراه لأنّ عمر لم يكن غبياً لتخفى عليه هذه النّاحية من أعمال معاوية! وهل جامله؟ وهذا لا يصح فإنّ عمر لم يكن فيه أثر للمجاملة، فإنّه بالأمس مزّق الصّك الّذي قطعه أبو بكر لأبي سفيان وولديه بالعطاء لتأليف قلوبهم كما كان يفعل رسول الله (صلى الله عليه وآله) وقال: «أصبح الإسلام غنيّاً عن تأليف القلوب» قال هذا وهو يعني ما يقول ويعلمه حقّ العلم فلم يبق مجال لدعوى المجاملة، وهل من تعلة أخرى لهذا السّكوت هي وراء الغباوة والمجاملة؟ يمكن أن نجد تعليلاً من أقوال عمر هي وراء ذينيك.

يقول عمر لابن عباس:

«كرهت – يعني قريشاً- أن تجمع لكم النّبوة والخلافة فتجحفوا النّاس جحفاً فنظرت لأنفسها فاختارت فأصابت ووفقت».

ليس في تاريخ الهاشميين إجحاف، وليس في تاريخهم عنت والمسلمون يعلمون ذلك، إذن ما الّذي يريده؟ إنّه كقرشي لا يريد أن يكتم ما في نفوس القرشيين فهو يعني ما يقول ويقصد إلى ما يقول، ولقد كان جدّياً صريحاً، وليس ما يدعوه لأن يجامل ابن عبّاس وإذن فالإجحاف هو اجتماع النّبوّة والإمامة.

لا نريد أن نعلق على هذا الحديث كما لا نريد أن نسعى وراء الأسباب الّتي طافت بذهنه لنتبين مواطن غرسها، وإذا لم نرد التّعليق فهل يصح أن نجرّده عن عوامل الوراثة كقرشي؟ وفي الحديث دلالة على تغلغل الوراثة وصريح أنّ قريشاً أبت أن تجمع للهاشميين شرفين شرف النّبوّة وشرف الإمامة وفي هذا صورة صادقة لما يخالج نفوس القرشيين من إمالة حرف الهاشميين عن حقهم في الخلافة كمسلمين فضلاً عن أنّهم أهل بيت النّبي (صلى الله عليه وآله).

وواضح غاية الوضوح أنّ ذلك أمر بيّت من قبل وانتهى القرار المبيّت إلى التّنفيذ منذ السّاعة الأولى الّتي غاب النّبي فيها عن أبصارهم، وقريش الّتي كرهت أولا أن يجتمع لهم شرف النّبوّة وشرف الإمامة ستستمر في كراهيتها وهي التجوالة التّركاضة في محاربة الهاشميين في شخص علي أمير المؤمنين (عليه السلام)، ولا تتلكّأ في ذلك مادامت قد هيّأت لنفسها الأسباب والوسائل للإمعان وراء هذا الخذلان.

نحن لم نتعد نظرات الخليفة، ولم نتجه إلى جهة أخرى غير ما يريد عمر من كلامه مع ابن عبّاس فإنّ كلامه يبدو صريحاً.

والباحث المتتبع يستطيع أن يردّ هذه الكراهية الّتي تنطوي عليها قلوب قريش إلى النّواة الّتي خرجت منها وسارت عليها في تجوالها وتركاضها.

وإذا كانت الكراهية هي وحدها الأداة لإبعاد الهاشميين عن الخلافة فلم يبق في قريش الممعنة في الحقد من يملأ المقعد وهو شديد الكراهية وتقوده ضمائر مدخولة غير أولئك النّفر الّذين ملئت نفوسهم برواسب قديمة، وملئت قلوبهم بالموجدة ويجهرون بالخلاف لهم كلّما وجدوا سبيلاً إلى المجاهرة به، وهؤلاء بالأمس كانوا يقبضون على مقود السّياسة المعادية وليس من يتمكن أن يساير الأمر الواقع غير معاوية، فإنّه وحده يستطيع أن يصل إلى المركز بأيسر مجهود، فإنّه عليم بمواطن ضعفهم ثمّ يستعبدهم بأساليبه لأغراضه.

نظرة بعيدة تسمح بأن يكون معاوية والٍ غير مسؤول!

وإذن يستطيع الباحث أن يفهم كيف كان معاوية غير مسؤول لا تزعزعه شدة عمر، وكيف مضى في خيلائه حينما

استقبل الخليفة وهو في طريقه إلى بيت المقدس راكباً على حمار، ومعاوية يستقبله على المطهم اللّعوب، يرفل بالدّمقس والحرير، وقد غلبته فتنة البذخ.

والدّفاع عنه بأنّه مرابط في أقرب أرض المسلمين للإمبراطورية البيزنطية دفاع ينقصه التّفكير الّذي يحصنه من النّقد إذا ثارت عواصفه، وحجة تفقد المنطق المصيب، ولا يسمعها مفكر إلا وينقضها برجال آخرين رابطوا على حدود فارس ومرابطين آخرين في أماكن أخرى أحصى عليهم الخليفة أنفاسهم وأحاطهم بكثير من العيون وما أيسر ما كان يتناولهم بالدّرة فيوقر ظهورهم، ويغص هؤلاء بريقهم، وطالما رأيناه يحاسبهم فيقول: «من أين لك هذا» ومعاوية لم يحاسبه: ولم يسأله من أين لك هذا؟ وينقضها أيضاً سيرة عمر نفسه فطالما قدم عليه سفراء أجانب فيرونه بمدرعته؟ ودرته فقط فهل استنقص هؤلاء خليفة المسلمين وهل ازدروه أو هل يرى القارئ أنّ عمر اليقظ الحساس قنع بالجواب: إنّه مرابط وهل كتب لهذا الجواب النّجاح في نفس عمر فلم ير حرجاً واختفت صلابته وراء أفق البذخ؟ لا أدري! لعله كان ذلك، ولعلّها امتدادة عين ترقب الحوادث من قريب ومن بعيد فتقع على ذوي الحنكة والسّياسة ممن يؤيدون قريشاً في السّاعة العصيبة حين تدعو الحاجة إلى التّأييد.

وكلمة أخرى من الخليفة تدلنا على مقدار العطف والتّركيز حدثونا: أنّ قوماً من المسلمين كانوا يذكرون كسرى وقيصر وأيامهما فقال لهم عمر تذكرون كسرى وقيصر وفيكم معاوية بن أبي سفيان؟

حجر

(١)

حجر إنسان لم يزهُ بحركة العصب والدّم ولم يزهُ بجماله وإنّما يزهو بمثاليته وكمال إنسانيته وإيمانه أطلّ وبيده مشعل المبادئ السّامية ومات وهو يحمل بيده مشعل المبادئ السّامية تحس وأنت تقرأ حياة حجر خطر النّفس وعظمة المبدأ وصلابة الإيمان وقوّة العقيدة.

بين منابت العزّ في المغرس العربي معدن الحسب الصّميم في البيت الرّفيع الدّعائم ولد حجر بن عدي الكندي...

فهو حجر الخير بن عدي الأدبر بن معاوية بن جبلة بن عدي بن معاوية الأكرمين بن الحارث بن معاوية بن ثور بن مرتع بن معاوية بن كندة الكندي يمني، وفي الطّبقات لابن سعد حجر بن عدي بن جبلة فأسقط معاوية.

وحجر بضم الحاء وسكون الجيم، وعن ابن ماكولا: يجوز ضمها، وكندة بكسر الكاف وسكون النّون حي من أحياء اليمن، وفي الطّبقات لابن سعد كان حجر جاهلياً إسلامياً، وفد على النّبي (ﷺ) مع أخيه هاني، وفي غير الطّبقات لا يختلف عنها اختلافاً جوهرياً.

هذا كلّ ما عرفناه عن حجر قبل الإسلام!!

لعلّه لا شيء أشقّ عل النّفوس من هذا الغموض الّذي عليه التّاريخ، وقد فرض علينا الاعتماد عليه فرضاً لا مناص لنا منه.

ولعلّه أيضاً لا شيء أبعث على قلق النّفوس وأشدّ إثارة للحيرة من هذه الصّورة الّتي عليها تاريخ أكثر رجال الصّدر الأوّل من المسلمين، فإنّها جافّة مظلمة لا ينتهي فيها القارئ إلى حقيقة ولا إلى يقين، ولا يلتمس فيها اتزاناً وقارئ التّاريخ، يرى وهو يقرأه أنّه يواكب رجالاً منهم من المهد إلى اللّحد، ويراه في آخرين غامضاً مبهماً لا يكاد يلمس منه شيئاً أكثر من أنّه ولد ومات، فيرجع القارئ وصحيفته فارغة من كلّ شيء حتّى ليخيل إليه أنّ بعض هؤلاء خرجوا من الجدار وأولئك لبسوا ثوب العظمة والجلال منذ نعومة الأظفار.

ويلوح لنا أنّ هذا منهم لم يكن عن مقاييس ثابتة ومعايير دقيقة وعلى الأغلب أنّه كان للعقيدة سلطان على النّصوص والحوادث كما يلوح أنّها كانت المدخل للتاريخ، ولا يبعد أن يكون هذا هو السّبب في أن يواكب المؤرخون قافلة من مسلمي الصّدر الأوّل ويتخلفوا عن القافلة الأخرى وإن كانت القافلتان أدركنا الجاهلية المظلمة والإسلام.

وعليه، فإنّ حجراً وإن كان شريفاً وإن كان شجاعاً وإن كان رئيساً وإن كان ابن الأكرمين، فإنّ كلّ هذه لم تكن المواد الوثيقة لتدعيم البناء أو تهيئة التّاريخ على سننه، ولم تكن أداة صالحة لكسب عطف المؤرخين والمحدثين رضي الواقع أم غضب والتّاريخ وقف خاص وموازينه بيد السّياسة وعلينا اليوم أن نسير وراءهم معصبي العيون.

وبعد فنحن معذورون إذا لم نتحدث عن حجر بن عدي في جاهليته لأنّا لا نريد أن نبتعد عن النّصوص كما لا نريد أن نرتجل تاريخاً، والنّصوص لم تحدثنا بأكثر من أنّه وفد مع أخيه على النّبي (ﷺ) وأنّه كان شجاعاً شريفاً كريماً، وهذه الصّفات حدثونا عنها وهو مسلم ولكن نعتقد بأنّهم لم يريدوا أنّ الإسلام قدمها إليه هدية وإنّما هي صفات مردها إلى الغريزة.

لم نعرف – على شدّة ما عنينا به من مراجعة ما بأيدينا من مصادر- تاريخ إسلامه والّذي يلوح لنا أنّه كان في وقت متأخر ومن هنا وقع بعضهم في الاشتباه وعده من كبار التّابعين، ففي الإصابة: إنّ البخاري وابن حاتم عن أبيه وخليفة بن خياط وابن حيان عدّوه من التّابعين، وكذلك ابن سعد في طبقاته في أحد قوليه عدّه من الطّبقة الأولى من التّابعين وفي

الطّبقة الرّابعة عدّة من الصّحابة فقال: «جاهلي إسلامي وفد على النّبي (ﷺ)».

وأوّل ما نلاحظ أنّ هؤلاء لم يقدموا دليلاً على أنّه لم يكن صحابياً وأرسلوا القول إرسالاً والّذي لا أشك فيه أنّه صحابيّ وعليه إجماع الشّيعة وهو سلفهم وأيضاً عليه الأكثرون من غيرهم، قال في الاستيعاب «كان حجر من فضلاء الصّحابة وصغر سنه عن كبارهم، وكان على كندة يوم صفين، وكان على الميسرة يوم النّهروان، وقال أحمد قلت ليحيى بن سلمان: أبلغك أنّ حجراً كان مستجاب الدّعوة؟ قال نعم وكان من أفاضل الصّحابة».

وفي أسد الغابة: هو المعروف بحجر الخير، وهو ابن الأدبر وفد على النّبي (ﷺ) وأسلم هو وأخوه هاني وكان من فضلاء الصّحابة وكان مستجاب الدّعوة.

وفي الإصابة: حجر بن عدي بن معاوية بن جبلة بن عدي بن ربيعة بن معاوية الأكرمين الكندي المعروف بحجر الأدبر الخير ذكر ابن سعد ومصعب الزّبيري فيما رواه الحاكم عنه أنّه وفد على النّبي (ﷺ) وشهد القادسية وإنّه شهد بعد ذلك الجمل وصفين وكان من شيعة علي وقتل بمرج عذراء بأمر معاوية وكان حجر هو الّذي فتحها فقدر أن قتل فيها وقد ذكر ابن الكلبي جميع ذلك.

والحاكم عدّه في أصحاب النّبي (ﷺ) وقال: وهو راهب أصحاب محمّد (ﷺ) ثمّ روى عن مصعب الزّبيري أنّه كان قد وفد على النّبي (ﷺ) وقال: عن إبراهيم بن يعقوب قد أدرك حجر بن عدي الجاهلية وأكل الدّم فيها ثمّ صحب رسول الله (ﷺ).

وقال ابن عساكر في تاريخ دمشق: حجر بن عدي الأدبر بن معاوية بن جبلة بن عدي يتصل نسبه بكهلان بن سبأ.

وفد على النّبي (ﷺ) وكان مع الجيش الّذي فتح الشّام.

وفي ذيل المذيل: حجر بن عدي هو حجر الخير وفد على النّبي (ﷺ) مع أخيه هاني بن عدي وهو الّذي فتح مرج عذراء.

وأنت ترى أنّ هؤلاء أرسلوا القول في صحبته إرسال المسلمات ولم يحتملوا خلافه مضافاً إلى إجماع الرّجاليين من شيعة آل محمّد (ﷺ).

ليس من السّهل علينا أن نحدّد وقت إسلامه ويلوح أنّه كان متأخراً وربما كان بعد فتح مكّة، ومن هنا يتبين لنا أنّ صحبته لم تتجاوز السّنتين وكذلك ليس من السّهل تحديد عمره عندما أسلم ويلوح لنا أيضاً أنّه لم ينته من العقد الثّالث.

وهنا يمكن التّساؤل كيف يفاضل حجر كبار الصّحابة والسّابقين الأوّلين فيكون من فضلائهم، وهو جديد الإسلام نشأ في بيت جاهلي يتصارح أهله بالكفر صباحاً مساءً، ويسجدون للأصنام غدوا ورواحاً، ثمّ هو بمدّة وجيزة ينزع عن نفسه ما ركبها من عادات جاهلية، فيكون راهب أصحاب محمّد (ﷺ) كما يروي ذلك الحاكم.

ولعلّ منشأ هذا أنّ سيطرته على نفسه وفّرت له توجيهها توجيهاً صحيحاً كاملاً وهذا الاعتداد بالنّفس وقوّة الإرادة في حجر جعلا منه صحابياً جليلاً فاضلاً يفاضل كبار المسلمين وشيوخ الصّحابة على صغر سنّه وسنأتي على تفصيل ذلك في البحث الآتي، وتدلنا سيرته من مبتدئها إلى منتهاها أنّه اتخذ من الإسلام ميزاناً لأعماله، وجعل هدفه الحق، يتّجه إليه في أعماله وأقواله.

ونلاحظ أنّه لم يعرف المداهنة ولم يود أن يداهن مطلقاً.

وانحاز إلى علي (عليه السلام) من اليوم الأوّل مصارحاً بهذا الانحياز بأشد ما تمكّنه المصارحة، ولعلّ أشدّ ما امتحنت به صراحته يوم أوقف بمرج عذراء على قبر محفور وسيف مسلول فلم يهب ولم يجزع ولم يملّ الصّبر.

لم يهيئ له القدر من الأسباب والوسائل أكثر مما هيّأ لغيره منذ صحب النّبي (ﷺ) إن لم نقل أنّه كان أقلّهم اتصالاً بالنّبي (ﷺ) فإنا استظهرنا أنّ إسلامه كان متأخراً جداً ومع ذلك فقد مضى مع الإيمان إلى الغاية الّتي ليس فوقها غاية، طُف بأصحاب النّبيّ (ﷺ)، وانظر إلى البررة الأتقياء من المسلمين، واستقرئ الاستقراء الصّحيح فلا أحسب أنّك تهتدي إلى أمثل من حجر بن عدي يقدم نفسه ضحية للحق لم ينقص القبر المحفور والسّيف المسلول والكفن المنشور من شجاعته ولا إخلاصه ولا حبّه لصاحبه الّذي آمن بحقّه ومزاياه ولا ملّ الصّبر، ومردّ هذا الإيمان الثّابت الّذي شربه صافياً فدفعه إلى القبر بكل هدوء وسكينة تنفرج شفتاه عن ابتسامة هادئة، عرفناها عند العظماء الّذين يقدمون أنفسهم ضحية لمبادئهم السّامية ومردّ هذا أيضاً إلى نضج تفكيره فيما استظهره من كتاب ربّه وسنة نبيه (ﷺ) وفيهما ما يكفي لأنّ تنفتح جوانب نفسه للمنهج الأمثل الّذي رسمه له كتاب الله، في إقامة الحق ورفع دعامته، فيضرى حجر في سبيل ذلك أشد ضراوة.

ومن الحق أن يقال أنّ حجراً صفت نفسه صفاء لم يعدله صفاء فرسم لنفسه طريقة مثلى في الحياة استخلصها من كتاب الله وحياة النّبي (ﷺ) والوصي (عليه السلام) فكان واحداً من أولئك النّفر القليل الّذين سموا بأنفسهم وأرواحهم إلى آفاق قدسية يتضاءل فيها سلطان المادة، فاكتملت لهم أركان الإنسانية المثالية، وارتفعت بهم الغايات النّبيلة عن ما يواكب النّفوس عادة من أوضار المادة وأوساخ الحياة، وخلصت نفوسهم من شوائب الهوى فاتصلوا بالله سبحانه اتصالاً

مباشراً، وملأ قلوبهم الحق الّذي هو الصّلة بين الخالق والمخلوق فكانوا – والحق يقال- أئمة إيمان وأعلام هدى وكانوا أدلاء على الله بأقوالهم وأفعالهم.

(٢)

يطلّ على الحياة وليد جميل المحيّا، وينشأ في بيت عالي الذّروة يشقّ طريقه في الحياة بنفس الوسيلة الّتي شقّ بها آباؤه طريقهم من قبله، فنشأ عربياً صريحاً في شجاعته وكرمه وصراحته، قد امتلأت نفسه بشتى المكارم شأن من دانوا بالمثل العليا وآمنوا بها إيماناً صحيحاً، فشبّ على تنمية خلال البطولة والإقدام والكرم، فامتاز بالبطولة والشّجاعة كما امتاز بالكرم والفصاحة وقوّة الحجة وضمّ إليها في الإسلام الامتياز بالزّهد والورع والأخلاق السّامية وقوّة العقيدة.

يظهر لنا أنّ الجاهلية لم تتصل بنفس حجر اتصالاً وثيقاً ولم تمسه ضراوة الغرائز الجاهلية الّتي كانت تفتك بالعقول والأجسام والأخلاق ولم يتحمل من أثقالها شيئاً يذكر، ذلك أنّه فتح عينيه أوّل ما فتحهما في هذه الحياة على مبدأين متصارعين اتسع لهما الميدان في الجزيرة العربية وهما الجاهلية والإسلام وكان التّصاول بينهما عنيفاً.

إنّ التّطورات السّياسية والاقتصادية والاجتماعية الّتي دخلت على العرب نكبت الكثيرين منهم في آدابهم وأخلاقهم وألحقت بهم فشلاً ذريعاً أدّى إلى تدهورهم خلقياً وانحلالهم اجتماعياً وسياسياً، فكان ولابدّ من صوت إنساني يدعو الأمم إلى الهدى والصّلاح، والقيم الإنسانية، وشاء الله سبحانه أن يصدر الصّوت من مكّة قبلة العرب ومحجتهم ومن أشرف بيت فيها تدين له العرب بالسّيادة ولم تنجسه الجاهلية بأنجاسها، فارتفع الصّوت في بيت هاشم سيد مكّة وانطلق مجلجلاً يسير صداه في أنحاء شبه الجزيرة العربية يدعو الأبيض والأسود إلى الله وإلى مكارم الأخلاق، فاستهوى الصّوت نفوساً كريمة ووضح لها الحق فاندفعت في أعقابه تعتنق الإسلام بحرارة واطمئنان ولم يجد في طريقه حاجزاً منيعاً يحول بينه وبين التّوغل بين القبائل، ولم يجد مانعاً من الدّخول إلى النّفوس، ومثل هذه الجاهلية المنهوكة سرعان ما تفقد توازنها وتأثيرها في النّفوس عندما يفاجئها الرّجل الحكيم الّذي يشاء أن ينهي عهد الطّغيان والفساد، وهذه الجاهلية لم يكن لديها هدف سامٍ، ولا غاية نبيلة، فلابدّ أن تخبو ذبالتها في جنبات الصّوت السّماوي المجلجل في سماء الجزيرة.

إنّها صيحة خير وراءها عزّ العرب وسلامة الأخلاق، صيحة هي شعور النّفوس تتلقاها القلوب الكبيرة الّتي لم تعد تستطيع هضم الأخلاق الجاهلية.

وإذا نحن نظرنا إلى الحقيقة عن طريق المقاييس والمعايير الصّحيحة لم يبق ثمة شكّ بأنّ الإسلام أكثر الأديان بساطة وأقربها إلى المثل السّامية الرّفيعة ليس فيه ما يقيد العقل ويوبق الرّوح ولعلمنا أنّ الإسلام دين يساير الإنسانية السّامية في سائر أدوارها ومثلها الرّفيعة مؤيداً بما يلائم الحياة من أخلاق عالية، هادماً ما بنته الوثنية المسفة من ضلال يرهق العقل، ويوبق الرّوح، ولم يبق ثمة – ممن له قيمة اجتماعية- من لا يمتحن عقله ثم هو لا يلحظ ذلك وكذلك لم يبق من لا يشعر بتفسخ الأخلاق، وتفكك عرى الآداب، فإنّ النّظام العربي بل الفارسي والرّوماني أسفّ إلى أقبح النّظم الاجتماعية.

وإنّ وجود المرء الحدث في جوّ كهذا الجوّ يجعله بعيداً عن التّأثر بعوامل الوراثة والبيئة، ومن هنا نستطيع أن نقول: إنّ حجراً لم يكن في شيء من تقاليد الجاهلية وإنّما تقدّم إلى الإسلام. بقلب أقرب أن يكون كزجاجة المصور: ومن هنا رأيناه منذ اعتنق الإسلام تقدّم فيه تقدّماً باهراً كأنّه خلق في الإسلام ولم يعرف شيئاً من الجاهلية وهذا شيء راهن عرفناه من سيرة حجر.

وإذن فمن السّخف أن يخرط لنا على بال أنّ رجلاً كحجر يتقدم في الإسلام هذا التّقدم، ويتفهم الإسلام كما يريد الإسلام فيكون راهب أصحاب النّبي (ﷺ) في فترة قصيرة، بعد أن كان مثقلاً بمتارك الجاهلية يرزح تحت عوامل الوراثة.

نقول ذلك لأنّ مشكلة الوراثة تأبى على حجر هذا الانتقال السّريع أشدّ الإباء تاركاً وراءه كلّ ما حمله في جاهليته، وليس عندي أسخف من هذه الخاطرة، ولا معدى لنا حينذاك من أن نكون وضعنا الأمور في غير موضعها في الوقت الّذي يتحتم علينا أن نضعها في الموضع الصّحيح لها.

وهل هناك من يشك بأنّ للتقاليد سلطاناً على الفكر والعقل يمنع من الخروج عليها دفعة واحدة، ثمّ يعتنق آراء جديدة تخالف الآراء الّتي نشأ عليها وشب وترعرع، ثمّ تأصلت في النّفوس والعقول ورسخت؟!

وإذن لابدّ من أحد أمرين اثنين فقط لا مناص عنهما:

١- إنّ الانتقال من الجاهلية إلى الإسلام كان بالعقلية الفطرية، وهي دائماً تحتذى وتقلّد، فاهتضم العرب الإسلام ونظمه بحكم الفطرة كما ظهر ذلك في المسلمين الأوّلين.

٢- إنّ حجراً إنّما تمت مداركه العقلية وقواه النّفسية في الوقت الّذي كان يتصارع فيه الإسلام مع الوثنية، وانتشرت المبادئ الإسلامية وتعاليم الإسلام بعض الانتشار فوجد مكاناً خالياً من نفسه وطبيعته واتسع لها فهمه فتقدم إلى الإسلام

بقلب فارغ من المبادئ الجاهلية والطّقوس الوثنية فخطا في الإسلام خطوته الواسعة وتقدّمه السّريع ونحن إذا لاحظنا المعايير والمقاييس العلمية نراها قد لا تهظم الوجه الأوّل كثيراً لأنّ عوامل الوراثة والبيئة شديدة المراس في النّفس الإنسانية لا تنفك تزاول النّفوس وتعاودها، وليس من السّهل التّخلي عنها في المرحلة الأولى من دور الانتقال، ولسنا نريد هنا إنكار القابلية والاستعداد للانتقال، ولكنها من الوجهة العملية لا تجدي وحدها ولا تفيد، بل تحتاج إلى استمرار طويل، ومن الطّبيعي أن تتنازع المبادئ القديمة مع المبادئ الجديدة على قاعدة اختيار الأصلح من المبدأين وهذا لا يتفق مع تقدم حجر السّريع فإنّه يحتاج إلى صبر وأناة مع توفر الاستعداد والقابلية.

على أنّه ليس من السّهل الهيّن تطبيق هذه النّظرية على المسلمين في الصّدر الأوّل، فإنّ الجاهلية استمرت تنافس الإسلام وتساجله مدّة طويلة ويسعنا أن نقول حتّى بعد وفاة النّبي (ﷺ).

وكلّ من واجه التّاريخ بالأناة والصّبر والعقل وعرف كيف يواجه الحوادث ويحللها يتضح له أنّ تصادم عوامل الوراثة والعقائد القديمة مع المبادئ الجديدة يكون تصادماً قوياً لا يشبهه القراع بالسّيوف، لأنّ الاصطدام بالسّيوف ينتهي بسرعة، ولكنّ حرب المبادئ يستمر طويلاً حتّى بعد ظفر أحد المبدأين، هذا إذا كانت المبادئ مختمرة في النّفوس وأمّا إذا لم تكن مختمرة فسرعان ما تزول.

وبعد –فإنّا نستفيد من هذا، ومن قول الرّواة أنّه كان راهب أصحاب النّبي، ومن القول بأنّ إسلامه كان متأخراً إنّ حجراً تقدم إلى الإسلام ولم تكن قد اختمرت في نفسه المبادئ الجاهلية، تقدّم وهو فارغ من النّوازع الوثنية الجاهلية وعوامل الوراثة، ومن هنا صحّ له أن يتأثر بالإسلام تأثراً سريعاً وصحّ أن يكون راهب أصحاب النّبي (ﷺ) زهداً وروعاً، وصار مثلاً إسلامياً من المثل العليا، انتهت به مثاليته إلى التّضحية، وتقدّم إلى قبر محفور ومدّ عنقه إلى سيف مشهور وهو يقول:

بسم الله وفي سبيل الله وعلى ملّة رسول، أشهد أنّ لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله وأنّ علياً وليّه وحجّته.

وهل يمكن أن نعتقد بأنّ الحياة المنتهية تمثل هذه الغاية النّبيلة تدفع صاحبها إلى الفناء خالية من اللّذة؟ وهل الحياة إلا ذلك الشّعاع المنبثق من مثالية النّفوس، وهذا الشّعاع يشق طريقه إلى قلوب الأجيال البشرية فيملأها نوراً يمحو ظلمة الجهل ويخلق فيها حرصاً على تطبيق المثل السّامية.

دور الانتقال خطير ولكن حجراً رحمه الله اجتازه بسهولة وأحس الإسلام علماً وفقهاً، وأحسنه عباده وزهداً وامتزج به امتزاجاً كأنّه خلق في الإسلام خلقاً جديداً، فنمت في نفسه الفضائل السّامية والأخلاق الكريمة، وامتلأ قلبه شعوراً نبيلاً وإيماناً راسخاً ناضل من أجله دولة الظّلم والطّغيان حتّى خرّ صريعاً في ساحة المجد، ولم تكن جريمة حجر الكندي الّتي استحق عليها القتل إلا هذا الإيمان بالله والطّاعة لرسول الله بولاية علي (ﷺ)، يقول أمير المؤمنين:

«حجر بن عدي وأصحابه كأصحاب الأخدود، وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالعزيز الحميد»[1].

ولقد طلب منه أن يتنازل عن هذا الولاء بسبب أو براءة من علي (ﷺ) غير أنّ إيمانه القوي وعقيدته الثّابتة أبَيَا عليه أن يتنازل، هذه هي الجريمة الّتي لم يتسع لها صدر معاوية الحاقد القديم الّذي مُلِئ قلبه بالرّواسب وهي الجريمة الّتي استحق عليها القتل.

لقد انحسر السّتر عن ابن حرب، وتابع السّير وراء خططه المرسومة ولم يبق في المسلمين من يحاسبه، وغلبت عليه شهوة الانتقام، ومعاوية في الإسلام هو معاوية قبله ثمّ وهو خليفة أيضاً لم يختلف شعوره!

قد مضى عليه زمن وهو حبيس في قفص، والآن يمسك بيده زمام الأمصار فلماذا لا يستنهض أمويته أولا تستنهضه للانتقام؟ ولم يفارقه أبداً الشّعور بأنّ رجال محمّد (ﷺ) هم الّذين قضوا على سلطانه، وإنْ تركهم الآن فسوف يضربون باطله ويحشدون له صفوفاً من السّيوف تحول بين الأمويين وبين الملك، وليس يوم معاوية هو خليفة إلاّ يوم موصول بماضيه في الجاهلية إنْ لفّه الإسلام في طيات الزّمن فهو الآن يمسك الزّمام كما كان يمسكه في بدر والأحزاب.

أجل، انحسر السّتر وأخذ يجيش صدره بما كان يبطن، ودفعته رواسبه القديمة إلى الانتقام والتّنكيل، ولم يبق في المسلمين من يقدر التّبعة ويعلم واجبه فيمشي إلى سليل الأمويين ويهزّ الحربة في وجهه، حربة الإسلام الّتي هزّها أولئك الأبطال في وجهه ووجه أبيه من قبل.

رسم الحوادث على وفق هواه، واستغل قميص عثمان، هو الّذي منعه نصرته، فأخذ من الثّوب راية، وهو امرؤ لا يعوزه الشّر والخبث، وأمعن في القتل والصّلب ودس السّم وعادت إلى الظّهور –بعد أن اختفت– العصبية الجاهلية، وتحركت في نفوس الأمويين نزعات لم تكن غريبة عنهم، ولكنها كانت محاطة بسياج من حديد، وقد أزيح السّياج وتقدّم معاوية إلى الخلافة وبين يديه السّيف والنّطع، غير أنّ الرّجال الّذين تشبعوا بالمثل الإسلامية العليا لا يأبهون لمثل هذا فإنّهم كلفوا بالحق

(١) شذرات الذّهب في حوادث سنة ٥١ ورواه في الدّرجات الرّفيعة.

لذات الحق فلا يتنازلون عن حقهم، بل يناضلون الباطل بالسّيف واللسان والنّفس.

وهؤلاء لم يتمسكوا بالولاء لعلي (عليه السلام) عن تقليد لتستطيع القوة أن تصرفهم عنه، وإنما هو وليد دراية عن النّبي (صلى الله عليه وآله)، ودراسة وبحث عميقين في الكتاب المجيد والسّنة النّبوية المطهرة، وهما شفاء العقل من الأوضار والجهل، فلذلك كانوا أحرص ما يكون على هذا الولاء، وأحرص النّاس على ترويجه والتّبشير به، ومن المستحيل أنْ تزول العقيدة أو يزول الولاء إذا كان منشأهما العلم ولا تبقى أي قيمة للسيف في يد الجلاد، وأية قيمة للسلطان إذا كان في يد الغاصب.

ويتلمس الباحث هذه الحقيقة من أصحاب أمير المؤمنين علي (عليه السلام) الّذين كانوا دوماً يطلبون النّصف لصاحبهم ولم تسلبهم السّيوف شيئاً من شجاعتهم ولا حبهم ولا ولائهم لمولاهم الّذي آمنوا بمزاياه وعرفوا حقّه من قريب ومن بعيد وخذ مثلاً لذلك حجر بن عدي وأصحابه، ففي السّاعة الأخيرة يشرف حجر على الحياة فيزدريها ويشرف على الإمارة فيسخر منها وينظر إلى السّلطان فيهزأ به، ويفتح عينه وقلبه على أعلى وأسمى من هذه الحياة وأغلى من الإمارة فاستشرى في سبيل الحق والعقيدة فكان عنده القبر محفوراً والسّيف مسلولاً والكفن منشوراً أسمى من القصر الجبار والحديقة الغناء.

ليس من الأمور السّهلة أنْ يقدّم المرء نفسه للقتل، فالمجاهد يتقدّم في ساحة القتال طامعاً بالنّصر ليؤوب بالغنيمة، ولكن حجراً تقدّم ولا طمع له بالعودة ولا طمع له بالغنيمة تقدم إلى القبر محفوراً وإلى السّيف مشهوراً، حقاً إنّها ضراوة في الحق لم تعرف المبادئ أسمى منها، وحقاً إنّها ميزته عن الكثير من أكابر الصّحابة والسّابقين الأولين، حقاً إنّها إذا فحصها الباحث الخبير أعوزه التّقدير على استخلاص صورة للحكم يؤمن عليه من أنْ يقذف بالغلو.

وقد نتصور أنّ إنساناً يقدّم نفسه ضحية لغاية من الغايات ولسبب من الأسباب وإمّا أنّه يُقدّم ولده قرباناً فقد يكون هذا نسيجاً من الوهم وضرباً من الخيال، ولكنّ حجراً كما حدّثونا عنه قدّم إلى الجلاد ابنه، ولا شك بأنّ هذا إغراق في البذل وإغراق في السّخاء لا يصدر إلا عن أهل العصمة ومن الّذين شملتهم عناية الله سبحانه من الفرع إلى القدم.

يقول الرّاوي تقدّم حجر إلى الجلاد وقال: «إنْ كنت مأموراً بقتل ولدي هذا فاقتله قبلي»، كلمة جدّ حاسمة من حجر جفل منها الجلاد الأثيم.

ماذا تقول وهل تعني ما تقول؟

الجلاد تنقصه الفكرة السّامية وهو لا يعرف من الحياة إلا هذه المادة القذرة الّتي يولدها حبّ الدّنيا والحظوة عند السّلطان، ومن الصّعب عليه أنْ يقرأ الرّوح البالية ما دام ملوثاً بحب الدّنيا، والمادة هي الّتي حكمت عليه بأنْ يكون جلاداً دنيئاً وهذه الاضطرابة منه كانت عابرة كسائر الاضطرابات الّتي تتقدم -عادة- الحوادث الخطيرة ثمّ تزول بسرعة.

ليس للجلاد أذن تسمع صوت القلوب ولا بصيرة عنده تقع على التذاذ الأرواح بالشّاهدات الغريبة عن الماديين، وكلّ تفكيره بما يدور حول سمعه وبصره ومن مادة طاغية في قصر الخليفة تسترق كلّ من في القصر وتدفعهم إلى غاياته الدّنيئة، الجلاد مادي كسائر الماديين الّذين سخرهم معاوية خليفة المسلمين لشهواته وتنفيذ مآربه، فكان من الطّبيعي أنْ تبدو في وجهه الدّهشة المرجفة.

ثمّ قال: أنا مأمور بقتله إنْ لم يسبّ أبا تراب ولكن لماذا أقدّمه للقتل عليك؟

إنّه لن يسبَّ أمير المؤمنين علي (عليه السلام) فاقتله لأني أخشى أنْ يرتجف قلبه إذا رأى السّيف يهوي على عنق أبيه فيسبَّ أميرَ المؤمنين ويعسوب الدّين وإنّه العار في سلسلة الأعقاب البريئة.

لم يكن الطّلب من صاحب المبدأ السّامي غريباً ولم يكن الاستفهام من رجل المادة غريباً أيضاً، فإنّ إيمان حجر بسمو مبدئه بلغ أقصى حدّ يمكن للإنسانية أنْ تبلغه أو تصل إليه، فلا يسمح أنْ يكون في عقبه من يرتكب الإثم العظيم بسبّ علي (عليه السلام)، وللسيف يهوي على عنق أبيه صورة رهيبة قد يزل منها اللسان وإنْ كان القلب مطمئناً بالإيمان، وحجر يحسب ذلك اندحاراً أمام الحق.. ولأنّ الجلاد لم يهيئ نفسه وقلبه لقراءة المبادئ السّامية والنّفوس الكبيرة، وكلما يصل إليه تفكيره هو هذه المادة الّتي تعبد في قصر معاوية من دون الله وهي أسمى أهدافه الّتي يهدف إليها.

لله أنت يا حجر، ما أبعد نظرك، إنّ هذا الطّلب منك في السّاعة الأخيرة لم يكن صامتاً أخرسَ، وإنّما هو نداء صارخ له دوي مجلجل في سمع الدّهر أيقظ في النّفوس التّمرد على السّلطان الظّالم وهوّن من شأنه، ونحن إذا وقفنا إلى جانب الحادث وسمعنا الطّلب من حجر رضوان الله عليه، فلا شكّ بأنا نحتاج إلى جهد لا نكاد نتصوره، ونعاني ما نعاني من بغتة وإعياء في السّمع وإجهاد في التّحمل، إلا أنّها سياسة الإيمان بعيدة الغور في الخطط الإيجابية وحسبنا أنْ نتصور من غايات هذه الخطط ما وصلت إليه الدّولة الأموية من اضمحلال في وقت سريع وما رافق معاوية من سخط عام شامل.

وأنا أعتقد بأنّ القارئ يعتقد معي بأنه ليس في هذا الطّلب فجوة منبعثة عن حركة الدّم واللّحم والعصب، ولا هو من لغة الإنسانية الضّاربة المتشبعة بروح القسوة، وإنّما هو لغة روحانية تعلو عن صخب الحياة، وترتفع عن ضجيج هذا المجتمع تنبعث عن العاطفة المشبوبة بجذوة الإيمان، وتندفع من حنجرة الإنسانية المثالية العليا تقدّم الولد العزيز إلى مذبح الشّرف ليكون الدّم المراق إعلاناً بأنّ كلمة الله هي العليا يهون في سبيلها كلُّ شيء حتّى الدّم الغالي، والإعلان بمعناه الصّحيح دعوة إلى العمل في سبيل إعلاء كلمة الله.

وهل من سامع لهذا الطّلب؟ وهل من قارئ لهذه السّياسة الرّشيدة الّتي اختطها أصحاب أمير المؤمنين علي (عليه السلام) لتشغل الأمويين أعواماً ثمّ لتزيلهم من الوجود أخيراً؟

قطع الصّوت الصّحراء وطاف في البلاد الإسلامية وكان قوة أقوى من الرّجال والعتاد ولعلّ الشّام لم تسمع لغطاً قبل قتل حجر، ولكن قتل حجر كان أوّل الوهن ينخر في عظام الدّولة الأموية وهمست الألسن وإن هي إلا أعوام حتّى حدثت المشاكل، يأخذ بعضها برقاب بعض وقضت أخيراً على السّلطان الأموي والصّرح الشّامخ الّذي بناه معاوية لأجيال وأجيال من أحفاد أمية.

لله ما أبرَّ حجر بعقيدته وما أبرَّ أصحابَ علي أمير المؤمنين (عليه السلام) وما أعظمَ هذه السّياسة، كلمة واحدة انفرجت عنها شفتا حجر في مرج عذراء ولكنها اليوم يقرؤها النّاس كتاباً ضخماً لا تحسب كلماته ولا تعد ولا تحصى.

يا لعظمة الحق، وجلال الإيمان، أي موقف يثير الإعجاب بصدق الإيمان أعظم من هذا الموقف؟ وأي سمو بالنّفس أرفع من هذا السّمو؟ لقد سمت نفسه وارتفعت إلى آفاق المثل العليا وتجردت من أوضار المادة، واستحالت إلى نور تتألق منه النّفوس الكريمة، وأي ظاهرة تثير الإعجاب وتتلاشى أمامها قوة السّلطان الظّالم أبلغ من هذه القوة وأعظم؟ وأي إيمان يكفل النّصر للحق أعظم من هذا الإيمان؟ إنّه إيمان ضعضع أركان العرش الأموي وزعزع سلطانهم، وإذا كنا في البداية رأيناه يقاوم سلطانهم ففي خاتمة المطاف نراه يتقدّم ويقدم معه قطعة انفصلت من قلبه إلى القتل ليعلن عن مساوئ الأمويين وأنّ غاياتهم هدم الإسلام وركوب هام النّاس.

والمفكر الّذي يؤمن بأنّ مادة التّفكير هو «الله» كحجر لا بدّ أنْ يقف هذا الموقف، ويقدّم قرابين أمثال هذا القربان فإنّ فيه صورة حيّة لصفاء النّفس وتكاملها في مثلها العليا تندفع في تيارات قوية من نور الإيمان يتفتح لها الوعي الكامل فتتصل بالله اتصالاً وثيقاً أكيداً وذلك هو الفوز العظيم.

وأي فوز أعظم من هذا الفوز؟ فإنّ الله وأهل السّماء يغضبون لقتل حجر كما حدثت بذلك السّيدة عائشة من رواية المرزباني والإصابة والدّرجات الرّفيعة.

وننقل حين ننقل هذا سراً عظيماً من أسرار عظمة حجر، ولا من ريب بأنّ هذه العظمة كانت نتيجة لتهذيب النّفس وتطهيرها من رواسب المادة وأوضارها فمن يشأ أنْ يعرف كيف يكون الإيمان رجالاً يغضب الله لهم فلينظر إلى حجر ومن أراد أن يعرف كيف تصفى النّفوس صفاء لا يعدله صفاء فلينظر إلى حجر في مرج عذراء.

يلوح لنا أنّ حجراً لم يشهد مشهداً من مشاهد النّبي (صلى الله عليه وآله)، لأنّه كما رأينا وذهبنا إليه من قبل تقدم إلى الإسلام متأخراً، وشهد القادسية، وكان في صف المحاربين في فتوح الشّام، ويلوح أنّه كان فيهما مرموقاً وهو الّذي فتح مرج عذراء في قول المؤرخين المحدثين.

ففي الطّبقات: «.. قال معاوية أخرجوهم إلى عذراء فاقتلوهم هناك» فحملوا إليها فقال حجر: ما هذه القربة: قالوا مرج عذراء، فقال: الحمد لله أمّا والله إنّي لأوّل مسلم نبَّح - بتشديد الياء- كلابها في سبيل الله ثمّ أُتِيَ بي إليها اليوم، وفي رواية المرزباني أحمل إليها مصفّداً بالحديد.

وقد شهد مع أمير المؤمنين علي (عليه السلام) الجمل وصفين والنّهروان وفي كلّها عقد له أمير المؤمنين ولحق الضّحاك في تدمر ونشب بينهما قتال ترك فيها الضّحاك تسعة عشر قتيلاً.

وحجر لم يكن في عداد المهاجرين لكنّه في عداد رجال الإسلام وحماته، ولازم أمير المؤمنين علياً (عليه السلام) بعد لحوق النّبي (صلى الله عليه وآله) بالرّفيق الأعلى فكان من البارزين في رجاله يحذوه في زهده وورعه حذو القذة بالقذة، واقتبس من مشكاة فضله، واستضاء بنور هديه، واستقى من معين علمه وروى الحديث عنه وفي قول لم يرو عن غيره ولكن صحّ أنّه روى عن النّبي (صلى الله عليه وآله).

وحجر معدود من أكابر الصّحابة وإنْ صغرهم سناً وتأخّر عنهم صحبة وكان من أعاظم العلماء البارزين وبارزي الفقهاء الّذين امتازوا بفضلهم وغزارة علمهم، وكان مستجاب الدّعوة في قول المؤرخين والمحدثين ففي الإصابة -كما في غيرها- إنّ حجراً أصابته جنابة فقال للموكل به: «أعطني شرابي أتطهر به ولا تعطني غداً شيئاً»، فقال له: «أخاف أنْ تموت عطشاً فيقتلني معاوية»، فدعا الله فانسكبت له سحابة ماء فأخذ منها الّذي احتاج إليه فقال له أصحابه: أُدعُ الله يخلصنا فقال: اللّهم خِرْ لَنا، فقتل وطائفة منهم.

أسوق هذا المثل لأقفَ مع القارئ على سرّ طهارة النّفس، وقوة الإيمان، وأثرهما البليغ وعلى روحانيته الكبيرة الّتي

جعلته محلّ عناية الله عزّ وعلا، بحيث يعطى حين يسأل ويجاب حين يدعو وليس هذا بالأمر الهيّن فإنّه يحتاج إلى جهاد وجلاد طويلين ولكن النّفوس الصّافية لا يعييها التماس للوصول إلى غاياتها فكان يسير على غرار معلوم لم يتغير استمده من إيمانه بسنة الرّسول وهدى علي أمير المؤمنين (عليه السلام) فبلغ من جهاده لنفسه غاية الشأو، فصفت صفاء لم يعدله صفاء، فما عاد يشغلها دنيا هؤلاء مع الحياة في كنف الظّالمين ولا هذا الخطر المحدق الّذي يزلزل القلوب، ويود لو استطاع أنْ يعجل السّاعة الّتي توصله إلى رحمة الله وإلى محمّد (صلى الله عليه وآله) وإلى علي (عليه السلام).

صفاء لا يقاس بمقياس، وإيمان كامل أشغل كلّ حواسه، ألا نراه يسأل الماء ليتطهر، فلا يريد أنْ يلقى الله على خباثة ولا يسأله النّجاة -مع أنّ أصحابه يسألونه أنْ يطلب لهم النّجاة- وإنما سأل الله أنْ يختار له ولهم لأنّ خيرة الله هي الأصلح وهو لا يريد إلا الأصلح الّذي يختاره الله له، ودون شكّ أنّ هذا نتيجة النّضوج النّفسي والاكتمال الرّوحي يمدهما إيمان عظيم أسمى من أنْ يعرف بالمنطق أو يحدّ بالحدود وأيضاً لا شكّ بأنّ مداركه تدرجت في سلّم الرّقي واستكمال الحيوية حتّى بلغ أعلى الدّرجات، ففنيت نفسه في مصدرها الأسمى، ومتى فنيت النّفس في المصدر الأعلى فقد ارتفعت عن المادة المحيطة بالنّفس الإنسانية، وكانت في الحال في عالم المثال، ومن الطّبيعي إذا تجلت لها القوى الفعالة اتجهت النّفس إلى بارئها اتجاهاً كاملاً قوياً استحقت عند ذلك أنْ تكون مصداقاً للحديث القدسي «عبدي أطعني تكنْ مثلي تقل للشيء كنْ فيكون» وهذا وإنّ كان غير خاضع للتعليل والتّحليل إلا أنّ النّفس تكون مركزاً للقوى الخفية الفعالة الّتي تحصل بطراز خاص من تربيتها وتهذيبها وتطهيرها وليس وراء هذه المرتبة العليا من مرتبة أخرى، فإنّ النّفس تتصل بخالقها اتصالاً وثيقاً فتكون كقاب قوسين وهذا لا تصل إليه عقول النّاس وأحلامهم وإنما ترتقي إليه الأنفس المثالية الّتي تحتل أجساماً مثالية وهي مرتبة الفناء كما يقول الحكماء فطوبى لحجر وحسن مآب.

حوادث

١

أيتكنّ صاحبة الجمل الأذنب تنبحها كلاب الحوأب فتكون ناكبة عن الطّريق «كأني بإحداكن قد نبحتها كلاب الحوأب» «إيّاك أنْ تكونيها يا حميراء!»

هكذا قال النّبي (صلى الله عليه وآله) للسيدتين أمّ سلمة وعائشة وكنّ عنده، وهكذا نراه يحذر السّيدة عائشة أنْ تكون صاحبة الجمل الأذنب «عسكر» ولقد كانتها ولم ينفع التّحذير.

ولماذا؟

ومن يدري صعوبة الجواب إذا أردنا من الواقع حكماً فيصلاً يوضح للناس الطّريق؟ ومن يقدر على البت في المسالك الملتوية الصّعبة ويحسبها النّاس أنّها طريق الانتصار للحق المهيض.

كأنّ السّيدة نسيت أنّ الصّاحبين كانا ممن تآمر على القتل وكأنّها نسيت أنّ حجرتها كانت ملجأ المستعطفين كما كانت مرجع المتآمرين حيناً، وأنّها مصدراً من مصادر الرّأي كما هي مصدر من مصادر العلم، وكأنّها نسيت أنّ هذا القتل لقي من نفسها ونفس الصّاحبين هوى غير مذكور.

الأفكار تتلاحق حتّى اليوم زاخرة كموج البحر في يوم عاصف مجنون في بواعث هذا المسير، أهي حركة أعدّتها السّياسة من قبل فاستوت قائمة على قدميها تهيج النّافر القديم؟ أم أنّها مرتجلة تدعو للثأر من قتلة عثمان لتكفّر عن تأليبها بصورته المرة؟

لقد شاءت السّياسة يومذاك وفي عصور متتالية أن تلبس هذه الحرب ثوباً مبهرجاً برّاقاً تنحني أمامه الأفكار والعقول والأقلام.. ولكن الله شاء أنْ يتراءى الحقّ من بين حراب السّياسة، وأنْ يرتفع السّتار الحديدي، ولم يبق ثمة شكّ في تحول مجرى التّيار إلى غير ما شاءته السّياسة وشاءه دعاة الفتنة فانطلقت الأفكار من عقالها لا تبالي، العواصف ولا بشبه الإجماع -عند جماعة جمحت بهم مطايا الغايات- الّذي جعل من النّاس صفاً واحداً مخدوعين بلمع السّراب أو لمعة من ضوء هي أشبه بلمعة الفجر الكاذب تنبعث في صفحة السّماء تغرّ السّذّج من النّاس أمّا الّذين مرضت عقائدهم فتسرب المرض إلى أفكارهم وأقلامهم، فهؤلاء كشعراء الإغريق يحرقون أنفسهم ليحيوا الآلهة فهم يصطنعون من الحجج والبراهين ما لا يتفق والواقع المشاهد المحسوس.

دع السّياسة تقول ما تشاء فإنّ الواقع لا يبررها وبرهانها لا يقف أمام قول السّيدة عندما سمعت أنّ البيعة انعقدت لعلي أمير المؤمنين حين صاحت: ردوني، ردوني.

إنّها استحضرت كلّ ماضيها ولم يبق خافياً أنّ صوراً من الماضي الغابر والحاضر الماثل منقوشة في ذهن السّيدة هي الّتي كانت تدفعها إلى الفتنة العمياء تسير مع العاطفة الّتي لم يكبحها موت الزّوج الكريم، وما انطوت عليه من رأي قديم يشغل بالها اليوم -وقد بايع النّاس علياً- أكثر مما كان يشغله من قبل فلا يعيقها شيء عن السّير إلى الفتنة الشّائكة يرافقها العناد المرهق، والعاطفة الجامحة ينحرفان بها عن مسالك الحكمة -وهي زوج الرّسول الكريم- وإنّ النّكبة بموت الزّوج العظيم لم تخفف من عاطفتها، ولم تشفها من شعورها السّابق، فهي أنثى على كلّ حال وهي لن تنسَ يوم كان أمير المؤمنين

علي (عليه السلام) يدخل على النّبي (صلى الله عليه وآله) بيتها يناجيه فيه طويلاً فتحسب أنّه أسرف في حدوده وأسرف في حقها ولن تنسَ أنّه أبو ولده دونها.

وعلى أيّ حال فإنّ السّيدة أبت إلا أنْ تبدي الخلاف على علي أمير المؤمنين وأبت إلا أنْ تركب في هودجها تقطع الفيافي والقفار ويحف بها الصّاحبان وإلى أين وجهتها؟

حيرة عارمة صبغت وجوه المجتمعين، الشّام قد كفاهم أمرها معاوية، المدينة وفيها الأسد وحوله أسود فاقتحامها غير ميسور، أزمة شديدة جرت على المجتمعين حيرة وارتباكاً، ولكن لم يطل مدى التّفكير ولم تستمر الأزمة طويلاً، فإنّ ابن عامر تقدم بالرّأي الحاسم فقال للصاحبين:

«اذهبا إلى البصرة فإنّ لي بها صنائع.. اذهبا إلى البصرة فإن غلبتم فلكم الشّام، وإن غلبكم عليّ كان معاوية لكم جنة».

رأي سديد تقبله الشّيخان بارتياح، وقد يكون عجباً أنّ العراق لم يدرِ لهما في خلد، وكيف لم يفطنا إليه، وفيه البصرة وفيه الكوفة وللبصرة هوى في طلحة، وللكوفة هوى في الزّبير ولكلّ منهما في كلّ من البلدين كلمة مسموعة.

تحرك الرّكب ووجهته البصرة وصوت الفتنة يشق طريقه إلى الآذان، ولم يعد خافياً على أحد أسباب المسير أو تعليل الفتنة الّتي مني بها المسلمون وكانت مفتاح كلّ شر، وأولى المسائل الّتي اعترضت سبيل الإسلام، ومهما أرادت السّياسة أنْ تعصب العيون وتسدل عليها أستاراً فإنّ ذلك لن يطول ولم يكتب له الدّوام، ولم يخف أنّ دعوى طلب الثّأر لم تكن إلا غطاء يستر حقد السّيدة القديم وجشع الصّاحبين.

لا نريد أنْ نتكهن بالواقع أو نفتئت على التّاريخ وقد أرهف التّساؤل عن هذه الفتنة الأسماع ولعبت السّياسة دورها في تحديد غاياتها ولكن في التّاريخ نتف تزيح السّتار وتحدّ من غلواء السّياسة والسّاسة، يقول عبد الله بن خلف للصاحبين طلحة والزّبير:

«إنّه ليس أحد من أهل الحجاز كان منه في عثمان شيء إلا وقد بلغ أهل العراق، وقد كان منكما في عثمان من التّخليب والتّأليب ما لا يدفعه جحود، ولا ينفعكما فيه عذر وأحسن فيكما قولاً من أزال عنكما القتل وألزمكما الخذل».

برهان يسوقه المنطق السّليم لم يتلبس عليه الأمر ولم يرم من ورائه إلى غاية غير حقن الدّماء وإعطاء الواقع حقه.

وهذا سعيد بن العاص يرفع السّتار ويكشف السّر، يقول المؤرخون:

إنّه تقدم إلى عائشة وهي في هودجها تسير وقال: «أين تريدين يا أمَّ المؤمنين؟ -البصرة- وما تصنعين بها؟ أطلبٌ بدم عثمان! هؤلاء قتلة عثمان معك».

ثمّ مضى إلى مروان وقال:

وأنت أين تريد- البصرة أطلب قتلة عثمان!

هؤلاء هم.. وأشار إلى الهودج وطلحة والزّبير ثمّ استمع إليه يكشف السّتار ويفضح السّر عن الحقيقة فيقول لمروان: «إنّ هذين الرّجلين قتلا عثمان وهما يريدان الأمر لأنفسهما فلما غلبا عليه قالا نغسل الدّم بالدّم والحوبة بالتّوبة».

واسمعه ثانياً يهتف ببني أمية قائلاً:

«تذهبون إلى البصرة وتأركم على أعجاز الإبل، اقتلوهم ثمّ ارجعوا إلى منازلكم يا قوم».

صراحة سافرة لم تعرف السّياسة، أو لم تشأ أن تتعرف على السّياسة، صراحة لم تعرف التّأويل في تاريخ الثّار لعثمان، تكشف عن ميول القادة، وما كذب حدسه ولا خابت فراسته.

وكلّ من استعرض فتنة البصرة على ضوء الحوادث الّتي تقدمت قتل عثمان والّتي تأخرت عنه الّتي استدعت رجوع السّيدة إلى مكة إلى أنْ انتهت بمقتل الصّاحبين وقتل «عسكر» كلّ من استعرض هذه الحوادث يكاد يجزم بأنّ قضية الثّار كانت ستاراً يستر من ورائه الميول والغايات ولكنّه ستار مفضوح، ومن الخطأ أنْ نظنّ أنّ الثّار لعثمان كان وحدة تجمع القادة إلى اختيار هذه الفتنة أو كان هو منفاخ النّار.

وخير لنا وللقارئ أن لا نتعجّل الرّأي قبل أنْ نقدم الشّاهد التّاريخي وإنّ نظرة عجلى في رواية أبي مخنف يحيى بن لوط تعطي القارئ والباحث صورة صحيحة عن هذه الحرب لا تحتمل التّأويل ولا تدع سبيلاً للشكّ في النّوايا الّتي كانت تخالج نفس السّيدة حتّى وهي في الهودج المرتكز على سنام عسكر.

يقول أبو مخنف: «لما بلغها قتل عثمان.. أقبلت مسرعة وهي تقول إيه ذا الإصبع لله أبوك أما إنّهم وجدوا طلحة لها كفواً».

أفليس من العدل أنْ يستنبط القارئ ميول السّيدة من هذا، ومن يسمع هذا منها ولا يحدد أغراضها من هذا الاتجاه؟ ولا يتبين المرمى السّياسي الّذي ترمي إليه من قولها: أما إنّهم وجدوا طلحة لها كفواً، وكلمة «وجدوا» ترمي إلى أنّ الحديث منها -وهي بين مكة والمدينة- لم يكن مرتجلاً ولا هو وليد التّفكير في الطّريق وإنما كان وليد مؤامرات واجتماعات ما أغفلتها قط ولا أسقطتها من أرقامها الحسابية.

فإنّ طلحة ليس في حساب الشّيوخ ولا هو الفرد الأوحد الّذي تقدم إليه الخلافة المعجونة بالدّم وفيهم علي وفيهم، وفيهم.. ولا نريد أنْ نستوعب تفاصيل أسباب الحادث فإنّ له

حديثاً آخر وإنّما نمر عليه مروراً عابراً بمقدار ما يسهل لنا الحديث عن صاحبنا حجر بن عدي فإنّه كان من أقطاب حملة الجمل وقد عقد له أمير المؤمنين (عليه السلام).

يلوح لنا أنّ حجراً لم يشترك في فتنة المدينة ولم يذهب مع الّذين ذهبوا إلى المدينة وأقام في الكوفة معتصماً بالصّمت، معتزلاً تلك الحياة العارمة بالفتن ينظر إليها عن كثب، ساكتاً أو شبيهاً بالسّاكت، غير مخدوع عن بصيرته والهدى الّذي هو عليه وفي هذه الفترة أغفل التّاريخ حجراً واعتزله ولم نعلم سبب ذلك وهو الرّئيس المطاع، وهذا دون شك خطة رجل يؤثر الهدوء حتّى يتبين له الصّواب من الخطأ في الفتنة، فإنّ أصابع القدر كلّها تشير إلى الصّراع الدّامي الّذي يحيط بالإسلام، وإلى الفرقة المشتتة للشمل، لذلك أحسب أنّه عزم أنْ يمتنع عنها ما وسعه الامتناع، ويركن إلى الهدوء ما وسعه الرّكون.

ولكنّ شيئاً واحداً لم نستطع فهمه، ولا يصح أنْ نغفله ولا نشير إليه، لأنّا لا نستطيع أنْ نغفل ماضي حجر ولا حاضره، ولكن لا حيلة لنا فيما لا حيلة فيه.

إنّا عرفنا فيما سبق ولاء حجر لأمير المؤمنين علي (عليه السلام)، وما زال يدين بهذا الولاء حتّى أراق آخر قطرة من دمه في سبيل هذا الولاء، ولا شكّ بأنّ حجراً علم بقدوم الحسن (عليه السلام) وعمار إلى الكوفة وعلم أيضاً بقدوم عبد الله بن العبّاس قبلهما وعلم بقدوم محمّد بن أبي بكر بكتاب علي أمير المؤمنين (عليه السلام) قبل الجميع إلى أبي موسى الأشعري، وأيضاً لا شكّ بأنّه يعلم السّياسة الّتي كان يدبرها أبو موسى ضد أمير المؤمنين (عليه السلام) حتّى بلغ الجحود والإنكار والانتقاض على مولاه الّذي يحمل عقد بيعته في عنقه، وحتّى أوشك أبو موسى أنْ ينحاز لأهل الفتنة المنتقضين على أمير المؤمنين، لم يغب علم ذلك كلّه عن حجر ومع هذا لم نسمع له صوتاً ولم نر له ذكراً في التّاريخ وهو سيد من سادات الكوفة ورئيس من رؤسائها وهذا ما يحار له الذّهن أشد حيرة ويدعو إلى العجب غاية العجب حينما يحاول أن يستعرض المعنى المقصود من وراء هذا الصّمت أهي سياسة لم يتصل آخرها بأوّلها؟ أم هو سكوت ليتبين مواطن الصّواب من الخطأ في رأي والي الكوفة الّذي كاد أن ينحاز؟ أم أنّ حجراً ليس من أصحاب الرّأي في هذه المحنة؟

هنا محل العجب! وهنا عقلت الحيرة لسان التّفكير وذهب الفكر في ظلام دامس لا يجد المخرج.

وكلّ ما حدّثنا به التّاريخ: «إنّ حجراً قام فيمن قام وقال: أيّها النّاس أجيبوا أمير المؤمنين وانفروا خفافاً وثقالاً مروا وأنا أوّلكم»، «وخفّ حينما عجت الكوفة بالنّفار».

وحدّثونا أنّه حينما فشلت سياسة أبي موسى التّخاذلية ولحقه ما لحقه من الهوان والصّغار قام الزّكي الإمام الحسن (عليه السلام) وقال: «أيّها النّاس إنّي غاد، فمن شاء منكم أنْ يخرج معي على الظّهر، ومن شاء فليخرج في الماء..»، «فما أصبح الغد حتّى التأمت الجموع، وعجّت الكوفة بالنّفار آلافاً كثيرة.. وقد تأمّر عليهم وجوههم ممن شهدنا ولاءهم أثناء تثبيط أبي موسى واستمساكهم بعهد أمير المؤمنين.. وكان فيهم القعقاع بن عمر وزيد بن صوحان والهيثم بن شهاب وحجر بن عدي».

وأنت ترى أنّه عند العافية ذكر حجر وفي هذه اللمحة العابرة بعد اندحار النّاكث أبي موسى يذكر حجر فقط أوليس هذا محل العجب؟ ومن العبث أن نحاول تعليل هذا الإهمال لحجر سيد كنده وكنده ملء الكوفة خرج منها اثنا عشر ألف سيف على صفين.

وحدثونا أيضاً: إنّه لمّا نفر النّاس إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) نفر معهم حجر وعقد له علي (عليه السلام) على مذحج والأشعريين ورووا أنّه ارتجز يوم الجمل بهذا الرّجز:

يا ربنا سلم لنا علياً ... سلم لنا المبارك المضيا
المؤمن الموحِّد التّقيا ... لا خطل الرّأي ولا غويّا
بل هادياً موفقاً مهديّاً ... وأحفظه ربي، وأحفظ النّبيا
فيه، فقد كان له ولياً ... ثمّ ارتضاه بعده وصيا

وإذا استجوبنا التّاريخ عن هذا الرّجز وعن الفارس الّذي برز إلى حجر وارتجز فأجابه فلا نراه يخرج عن الصّمت كعادته فإنّ التّاريخ اعتصم بالصّمت في كثير من الحوادث والوقائع.. وهنا موطن الدّاء الّذي جعل الأصوات ترتفع وتتلاحق من هنا وهناك.

وما أدري إذا كان يأتي الزّمن الّذي يزيح الكابوس ويبعث النّشاط إلى النّفوس ويسهل على الأقلام طريقها إلى الواقع.

صفين

٢

إنّ معاوية لم يكن بالرّجل الّذي يضيّع الفرصة السّانحة أو يفوّتها.. وها قد أينع الغرس وبدت الثّمرة ناضجة قد حان قطافها وقد أعدّ نفسه لهذا المنصب وعمل له سنين طوال.. وقد دقّت السّاعة المنتظرة وهذا عثمان شيخ الأمويين محصور في المدينة يستنجده فيقول: «إنّ القوم طال فيهم مقامي واستعجلوا القدر.. فيا غوثاه يا غوثاه، فالعجل العجل يا معاوية وأدرك ثمّ أدرك، ولا أراك تدرك»، الكتاب يعلن الخطر أفلم يقدّره معاوية؟ أم استخفّ بحق شيخه المحصور؟

كلا.. إنّه يقدّر الخطر، ولا يستهين بعثمان، فقد فكّر طويلاً، وتدبر الأمر طويلاً، ولكنّه يريد الملك لبني عبد شمس وتترأى له اللحظة الحاسمة ويوشك أنْ تكون قريبة جداً لتفصل بين عهدين عهد نبوّة وخلافة وعهد ملك عبشمي كان يدأب عاملاً في سبيله وقد أزفت السّاعة الّتي يتمكن فيها ابن أبي سفيان أن يركب هام النّاس وأن يتحكّم برقابهم.

وماذا كان جواب معاوية؟ وهل أغاثه؟

إنّه يترسم المصير السّياسي، وأولى به وأنفع لخططه أنْ يتريّث فقد آن وقت العمل الجدّي والعمل الجدّي يرتبط بمصير الصّراع القائم في المدينة أشدّ ارتباط

لم يختلج لمعاوية خاطر في أنّ هذه الثّورة ستنجلي عن خير لعثمان، وهذه الآمال أينعت وأوشك أنْ يجني الثّمرة فخير له الآن أنْ يرقب الوضع، ومن يضمن له سلامة النّهاية غير دهائه وخداعه، فهو يخادع حتّى الأمويين وحتّى لو اقتضت الحكمة أنْ يخدع نفسه في سبيل مصلحته لخدعها.

وقد انتهت به وجهة النّظر أنْ يخادع فتظاهر بالنّجدة وأعدّ عدّة قوية وأمّر عليها يزيد ابن أسد العشري، وقال له وهو يتأهب مع جيشه للمسير: «إذا أتيت ذا خشب فأقم بها ولا تتجاوزها، ولا تقل الشّاهد يرى ما لا يرى الغائب، فإنّني أنا الشّاهد وأنت الغائب».

هذه وصيته لقائده أتراه لم يعنِ ما يقول؟ أم تراه لم يفهم ما معنى «العجل، العجل.. وأدرك ثمّ أدرك» أم أنّها خطط سياسية لا خطط حربية؟ أم لعلة أخرى فعل ذلك معاوية؟ إنّه تاجر أراد أنْ يوازن بين حالين.. حلم يمر يريد أنْ يتدبّره ويستجلي غوامضه، فإنّ الشّكّ يساوره.

فرصة ذهبية تمرّ أيتركها تمرّ مسرعة فينجد عثمان ثمّ ينام بعدها على الأسى المرير فيظل والياً؟ إنّ له مطمعاً بالسّيادة ولا تأتيه هذه السّيادة إلا عن طريق قتل شيخ الأمويين! ومعنى ذلك أنّه يطلب القصاص ويطلب الدّيّة وديته الخلافة هذه أحلام معاوية تزحف إلى صدره وهو يوصي القائد فيقول له: «لا تقل الشّاهد يرى ما لا يرى الغائب فإنّني أنا الشّاهد وأنت الغائب».

إنّها كلمات ولكنها كتاب يكشف غوامض الأسرار ويفضح أسرار السّياسة الّتي اختطها لنفسه.

لم يتسع فهم القائد لمقصد الآمر.. إنّه شعور خفيّ يدب في القلب وليس للقائد قلب معاوية ليترسم الخطط وليس عليه إلا أنْ يلحق بذي خشب وينتظر ما تسفر عنه غوغاء المدينة وبتعبير أدق ما تسفر عنه سياسة معاوية.

فإنّ ساعة البتّ تدقُّ، وهذا طنين دقاتها يقرع أذني معاوية فقط والقائد لا يسمع الدّقات ولا طنينها، وحسبه أنْ يمتثل أمر القائد الأعلى ويقف في ذي خشب وإنْ كان لا يفهم سرّ الوقوف ولا يفهم كيف يكون غائباً عن المدينة وبينه وبينها أميال لا تتجاوز عدد الأصابع؟ وكيف يكون معاوية حاضراً وبينه وبينها مئات الأميال؟!

فرصة سانحة لا يستطيع أنْ يدعها تمرّ وكذلك لا يستطيع أنْ لا ينجد الشّيخ المحصور الّذي يستغيث به ويستنجده! والحلُّ أنْ يصطنع النّجدة اصطناعاً وليقف الجيش في ذي خشب يسمع الغوغاء ولا يسمعها بأمر القائد الأعلى!! ويرى الدّم يشخب من الجروح ولكن لا يراه بأمر القائد الأعلى.

ماذا يجني من نجدة عثمان؟ وما الّذي يجنيه إذا أنجد عثمان وانتشله من بين مخالب الفتنة وسلم من القتل ومعاوية يريد الخلافة ونحن لا نلقي السّؤال لنلتقي مع جدل المجادلين إنّه معاوية ويرى أكداساً من المحاذير تقف سدّاً مانعاً بينه وبين ما يريد إذا هو أنجد عثمان نجدة صحيحة وإذا سلم عثمان من بين مخالب الغوغاء.

وليس على هؤلاء الجداليين أو المتعنتين إلا أنْ يمرّوا بمعاوية وهو في الشّام ليروا المنهج الّذي انتهجه لنفسه وأخذ يطبقه من البداية حتّى النّهاية.

إنّ بالشّام مائة ألف فارس، كلٌّ يأخذ العطاء مع مثلهم من أبنائهم وعبدانهم، لا يعرفون علياً ولا قرابته، ولا عماراً ولا سابقته، ولا الزّبير ولا صحابته.

هذا ما قاله معاوية وهذه مناهجه، والآن تبيّن السّبيل الّذي يصل منه إلى مراميه، فماذا يجني إذا سلم عثمان من القتل؟ كان لزاماً عليه أنْ ينجد عثمان، ولكنّه يعلم أنّه إنْ ضرب ضربته الحاسمة ودفع القوى المسلحة عن المدينة ونجا عثمان من القتل فإنّه يوشك أنْ يخسر الموقف بل يخسره حتماً وتضيع عليه الفرصة الذّهبية الّتي أتاحها له القدر المواتي، وإذا كان عثمان أبى عليه بالأمس والقلوب تغلي أنْ ينتقل إلى الشّام فهو اليوم أجدر أن لا يوافقه على ذلك بعد فشل الثّورة واندحار الثّوار فتذهب أحلامه وآماله مع الرّيح.

ومعاوية رجل له تفكير ودهاء، وله عمق في التّفكير وعناية خاصة بالغوص إلى الخفايا ولم يعد عنده شك في تحوّل مجرى السّياسة وليست هذه الغوغاء اليوم إلا صورة من صور شتّى عن التّحسس العام الّذي يتدافع في النّفوس وأنّ عليه أنْ لا يصغي لغير صوت هواه ولا يستجيب لشيء غير رواسبه الّتي لا تفتأ تدب في قلبه حتّى يحين لها أنْ تظهر فتنبعث سعيراً يلتهب وهذه السّاعة تدق وهو فقط يسمع طنين الدّقات وعليه أيضاً أن يتظاهر بالنّجدة فإذن: يرسل قوة إلى ذي جشب وذي جشب فقط

الحقيقة أنّ جريرة هذه الجريمة تتعلق بمعاوية والولاة الأمويين قبل أن تتعلق بالثّائرين أنفسهم.

كما وأنّ الحق، إنّ الثّأر لعثمان لم يكن إلا ستاراً يستتر وراءه معاوية ليخدع النّاس به، ولم يخرج عن كونه «صراعاً بين الخلافة الدّينية كما تمثلت في علي بن أبي طالب، والدّولة الدّنيوية كما تمثلت في معاوية بن أبي سفيان».

وهذا رأي لا يحتاج إلى دليل أو برهان وسيرة معاوية كلّها براهين وأدلة وخذ مثلاً ما كان بينه وبين عائشة بنت عثمان حينما زار المدينة فإنّه أوّل ما سمع عندما دخل دار عثمان صيحة عائشة ابنته تبكي وتقول: وا أبتاه، فقال لها وهو يعزيها: «يا ابنة أخي إنّ النّاس أعطونا طاعة وأعطيناهم أماناً، وأظهرنا لهم حلماً تحته غضب، وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد، ومع كلّ إنسان سيفه، وهو يرى مكان أنصاره، فإنْ نكثنا بهم نكثوا بنا، ولا ندري أتكون علينا أم لنا؟ ولأن تكوني بنت عمّ أمير المؤمنين خير من أن تكوني امرأة من عرض المسلمين».

ومثل آخر: عمرو بن العاص حينما جاءته الأنباء بمقتل عثمان قال: «أنا أبو عبد الله، إذا حككت قرحة نكأتها، إنّي كنت لأحرضّ عليه الرّاعي في غنمه برأس الجبل».

صدق ابن العاص فإنّه ألّب على عثمان.. وملأ الأرض والفضاء بالدّعوة إلى الخلاص من عثمان، وهذا هو إلى جانب معاوية في صفين يطلب بالثّأر لعثمان!! إنّه ابن هند يطلب ملكاً أموياً فيستبيح في سبيله كلّ شيء.

وللإفاضة في صفين وأسبابها وبواعثها مكان آخر وكتاب غير هذا الكتاب ولا نريد هنا إلا مقدار ما يسهّل لنا بيان موقف حجر بن عدي في صفين.

حجر من الرّؤساء الّذين تركزت عليهم صفين فإنّه كان من كندة وكندة يخرج منها اثنا عشر ألف سيف وهو شجاع معدود بين شجعان الكوفة وفرسانها.

ولكنا نراه ضعيف الصّوت فيها كالذّبالة في مهبّ الرّيح يهدأ الرّيح فينتشر منها النّور ضيئلاً ويهب فتخفت حيناً.

ولعلّ السّر في ذلك أنّ التّاريخ لم يوفق لأنْ يقوم على سنن منطقية من تعليل الحوادث ونعني بهذا أنّ المؤرخين فقدوا الميزان حينما كانوا يأتون إلى الرّوايات وإلى الخطب الّتي كانت تصدر في حال الحوادث أو تتقدم بين يديها، وهذه ذات تأثير في عرض الحادث التّاريخي عرضاً يتفق مع الواقع، والتّدوين يكون نتيجة لعرض الرّواية وتحليلها.

ومهما يكن من شيء فالآن لا يهمنا أمر سوى عرض ما وصل إلينا مما كان من حجر في صفين نعرضه على ما فيه من تفكك.

حدّثونا، أنّ أمير المؤمنين علياً (عليه السلام) دعا إليه من كان معه من المهاجرين والأنصار فحمد الله وأثنى عليه وقال: «أمّا بعد فإنّكم ميامين الرّأي، مراجيح الحلم، مقاويل الحق، مباركو الفعل والأمر، وقد أردنا المسير إلى عدونا وعدوكم فأشيروا علينا برأيكم».

فجعلوا يقومون واحداً بعد واحد، ويبذلون الطّاعة والنّصر وقام حجر فقال: «يا أمير المؤمنين، نحن بنو الحرب وأهلها الّذين نلقحها وننتجها، قد ضارستنا وضارسناها، ولنا أعوان ذوو صلاح وعشيرة ذات عدد، ورأي بحرب وبأس محمود، وأزمّتنا منقادة لك بالسّمع والطّاعة، فإنْ شرّقت شرّقنا، وإنْ غرّبت غرّبنا، وما أمرتنا به من أمر فعلناه».

فقال علي (عليه السلام): أكل قومك يرى مثل رأيك؟ قال ما رأيت منهم إلا حسناً وهذه يدي عنهم بالسّمع والطّاعة وحسن الإجابة.

وإنّها أكثر من كلمات بل سفر حافل تفسر لنا مكان حجر من الحرب وتشير لكيانه القومي وكرامته ومنزلته في نفوس قومه وأنّه ليس بخوّار حينما تكشّر الحرب عن نابها، ومن ناحيتها الأخرى تعطينا صورة عن ارتكازات حجر وإيمانه بالهدف وتصور لنا مشاعره وما انطوى عليه من عزم وتصميم وحماس ملتهب، ولكن الكلمة تاهت في منعطفات التّاريخ وذهبت مع ريح دبور عاصف.

وحدّثونا: أنّ علياً (عليه السلام) عقد الألوية وأعطاها لرؤسائهم وجعل حجراً على كندة وحضرموت وقضاعة.

واندلع لسان الحرب واختلط القوم من الفريقين يضرب بعضهم وجوه بعض، وكان أمير المؤمنين علي (عليه السلام) يأمر الرّجل الشّريف بالخروج فيخرج ومعه جماعة، ويخرج إليه رجل من أصحاب معاوية ومعه جماعة فيقتتلان، وخرج حجر فيمن خرج عامر القلب مزهواً بشجاعته، وخرج أدهم بن لام القضاعي وقال مرتجزاً مخاطباً سعيد بن قيس:

أثبت لوقع الصّارم الصّقيل ... فأنت لا شكّ أخو قتيل

فتقدّم إليه حجر بحماسة وحرارة فقتله، فخرج إليه الحكيم بن الأزهر قائلاً:

يا حجر حجر بن عدي الكندي ... أثبت فإنّي ليس مثلي بعدي

فقتله حجر فخرج مالك بن مسهر القضاعي يقول:

إنّي أنا مالك وابن مسهر ... أنا ابن عمّ الحكم بن الأزهر

فأجابه حجر:

إنّي حجر وأنا ابن مسعر ... أقدم إذا شئت ولا تؤخر

وقتله حجر.

وانتهت وقعة صفين عند حجر فإنّ التّاريخ لم يحدّثنا عنه بأكثر مما هو بين يدي القارئ.

غمدوا السّيوف، وأبرم المتحاربان الأمر بتحكيم الحكمين وأقرهم علي أمير المؤمنين (عليه السلام) ومعاوية ولم يبق حرج على النّاس أيان ذهبوا لو كان معاوية مخلصاً، ولكنّه لغير هذا جيّش الجيوش فهو أموي وقد وضع أمويته أمام بصره فلا يرى غيرها، والبواعث الّتي بعثت على تجييش الجيوش يوم بدر وأُحُد والأحزاب هي نفسها جيّشت الجيوش إلى صفين، والحقد الّذي كان يدفعه إلى السّير تحت راية أبي سفيان إلى حرب رسول الله (صلى الله عليه وآله)، لم يختلف في ظاهرة وفي واقعة في المكانين، ومعاوية لم ينس الدّم المسفوح في بدر ورائحته تملأ أنفه الوارم في صفين كما كانت تملأ أنفه من قبل في مكة، ولأنْ خذله دينه اليوم أو هو خذل دينه فلن يخذل أمويته قط وصفين لم تحقق رغائب معاوية كما يريد، وفي قلبه ريب من المستقبل، والقلق يساوره من الحكمين فلا يعلم المصير وقد تكون الهزيمة الشّنعاء وإذن لا يرى -بعد أن كان لا يتقيد بعهد- عليه من جناح أنْ يهيئ قوى تشبع رغباته المنهومة فيشنّ حرباً على الأطراف وسائلها الغارات والنّهب والسّلب والتّخويف والقتل بقسوة العذاب.

قرَّ رأيه على ذلك ونادى الضّحاك بن قيس وعقد له على ثلاثة آلاف وأمره أنْ يمرّ بأسفل واقصة، ويغير على كلّ من مرَّ به ممن هو في طاعة علي (عليه السلام) من الأعراب، فأغار الضّحاك على الأطراف الآمنة، ونهب الأموال وقتل من لقي من الأعراب، وأغار على الحاج فنهب أمتعتهم ولقي عمرو بن عميس بن مسعود الذّهلي فقتله، ولما بلغ الخبر علياً (عليه السلام) غمّه ذلك وأثقل قلبه ودعا حجراً وعقد له راية على أربعة آلاف، وخرج حجر ماراً بالسّماوة فلقي فيها امرئ القيس بن عدي فأخذه معه ليكون دليله على الطّريق وعلى المياه، وما زال مغذاً في سيره أثر الضّحاك حتّى لحقه في ناحية تدمر فواقعه القتال ساعة من النّهار فقتل من أصحاب الضّحاك تسعة عشر رجلاً وقتل من أصحاب حجر رجلان.

أرخى المساء سدوله يلفّ بين جوانحه كلَّ ما حوله ولف الخصمين فيما لف، وأخذ القلق والخوف يساوران الضّحاك والحيرة تتجاذبه، يرى تسعة عشر قتيلاً وما يدري ما يضمر له الغد إذا هو صمد للأسد تلتف حوله أُسود وفهود، فاهتبل الجبان الفرصة سانحة وراح في وجوم وصمت يقهر قدميه على المسير في غلسة الظّلام تاركاً قتلاه طعمة سائغة لوحوش الفلاة وأصبح حجر وأصحابه فلم يروا للجبان الغادر أثراً.

فرّ الضّحاك، ونجا بنفسه، وكانت ليلته هذه قاسية في حياته، لها في دخيلة نفسه مثل طعم العلقم، وكان حريّاً أنْ يأسى ويحزن ولا ينسى، ولكن يلوح لنا أنّه صلف لا يخجل من العار فإنّه من خريجي مدرسة معاوية كعمرو بن العاص وبسر بن ارطاط لا يندى جبينهم من العار أياً كان شكله أولئك دفعوا القتل بسوآتهم وهذا الضّحاك يفر في الغلس ولا يخجل أنْ يصعد منبر الكوفة فيقول بدون استحياء «.. لا تجدونني ضعيف السّورة، ولا كليل الشّفرة، أما إنّي لصاحبكم الّذي أغرت على بلادكم، فكنت أوّل من غزاها في الإسلام، وشرب من ماء الثّعلبية، ومن شاطئ الفرات، أعاقب من شئت، لقد ذعرت المخدرات في خدورهن، فاتقوا الله يا أهل العراق، أنا الضّحاك بن قيس!؟ أنا أبو أنيس! أنا قاتل عمر بن عميس..».

قاتله الله إنّه صلف قبل أنْ يكون خطيباً، والتّاريخ القريب يعرف أنّ صحيفته السّوداء مليئة بالمخازي، وكلمته هذه ضربت بإحدى يديها على أوتار قلوب السّامعين فهزتهم السّخرية بأميرهم، وأعادت إلى نفوسهم تهوين شأن الأمير كما استهانوا به في ليلته الماضية في غربي تدمر الّتي لا تزال ماثلة بين سمعهم وبصرهم كما هي ماثلة بين سمع الأمير وبصره.

وبدا للجالسين أنْ يهزؤوا بأميرهم المنهزم في الظّلمة القاتمة تلفه مع أصحابه عن العيون: فقام من بينهم عبد الرّحمن بن عبيد يرحب بالأمير ويحدّثه عن مصيره الموجع فقال: «صدق الأمير وأحسن القول، ما أعرَفَنا والله بما ذكرت ولقد لقيناك غربيَّ تدمر شجاعاً مجرباً صبوراً».

فسكت الضّحاك وكأنّه أُخزي واستحيا وأنهى تحديّه ذلك التّحدي الصّلف متخاذلاً أشد التّخاذل فقال: «نعم كان ذلك اليوم»، ثمّ نزل مخزياً.

أغمدت السّيوف في صفين على أنْ تُجَّردَ سيوفٌ أخرى وأطفئت نار الحرب على أن تشب جذوة حرب ثانية.

٣

مضى علي أمير المؤمنين إلى ربّه شهيد عظمته فانطوت حياة مثالية طبعت بنواميس الشّريعة الإسلامية، لم تغيرها الأحداث الملتوية.. مثالية استمدت من الدّين روحه ومعناه وجميع مبادئه العادلة الشّاملة الّتي تسع جميع النّاس، وكسر الحواجز بين الطّبقات وعالن النّاس بالتّسوية الحقة بين أفراد الأمّة «فلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتّقوى» وللمتقين عند الله أحسن الجزاء.

طويت هذه الصّفحة اللامعة فانطوت معها العدالة والتّنظيم الإلهي على أساس سليم، وقدّم التّاريخ صفحة جديدة بين يدي خليفة جديد.. ابتسم لها ابن هند بازدراء، وأخذ يتبين السّبل للعمل، وقد كان يتحفز للثأر من قديم، وهو حاذق تمام الحذق، يعرف كيف يلعب خلف السّتار، وكيف يلعب على المكشوف، والآن متعته الأولى والأخيرة أن يلقي نظرة على هؤلاء الّذين تبوّؤوا مراكزهم

في الرّقعة الإسلامية وكانوا يضربون باطله بحقهم، ويحشدون صفوفاً من المسلمين ليسحقوا الأموية الجاهلية.

قلّبَ معاوية سفر الماضي فنظر إليه صفحة صفحة نظرة الواعي اليقظ وقرأه كلمة كلمة، واستوعبه حرفاً فحرف فأثار كوامنه وتحركت نفسه إلى الهدف، ولم يبق ثمة ما يمنعه أنْ يتقدّم للثأر من هذه الصّفوة المختارة من بناة الإسلام وحماته بموجدة مشبوبة لا يخمد ضرامها لا في ساعة من ليل، ولا في ساعة من نهار، وتقدم إلى عماله الّذين أهّلتهم للولاية أمويتهم لا كفاياتهم بكتابه «أنْ برئت الذّمة ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته».

واستمع إليه يوصي المغيرة حين أرسله والياً على الكوفة فقال له: «قد رأيت ايصاءك بأشياء كثيرة، فأنا تاركها اعتماداً عل بصرك ولست تاركاً ايصاءك بخصلة: لا تترك شتم علي وذمه، والتّرحّم على عثمان، والعيب لأصحاب علي والإقصاء لهم والإطراء لشيعة عثمان والإدناء لهم».

أثمّة غموض في غايات معاوية وأهدافه؟ أم هي الصّراحة السّافرة الّتي طبعت أقواله بطابع أغراضه وجعلت سياسته سافرة قد رسمها من السّاعة الأولى.

إنّ معاوية وهو خليفة، هو معاوية يوم كان إلى جانب أخيه تحت لواء أبيه وهو يحارب الإسلام، لم يفقد شيئاً من مميزاته في العهدين، بهذه النّفسية عمل معاوية وبها حارب علياً، وبها تقدّم إلى الخلافة وساعده القدر فمدَّ يده لمعونته على البقية من الصّفوة حماة الإيمان وأنصار الحق، والأدلاء على الله اندفع بجشع يثأر منهم.

واندفعت الفتنة تسير في طريقها بدون وازع من خشية الله أو رادع من الإنسانية المتخاذلة أمام أغراض معاوية وانطلقت الأموية من النّفوس المشبوبة بضرام الحقد تعبث بالنّفوس، وتهريق الدّماء بقسوة من العذاب الأليم، لا تعرف شفقة ولا رحمة، وقد كشف معاوية عن وجه الغدر وأسفر عن دخيلة نفسه، ووضح ما خفي على النّفوس زمناً، ووجه ضربته القاسية تفتك بمجرد الشّبهة وتقتل على الظّن والتّهمة، وكانت الكوفة نصب عينيه، ولا يني أن يقيمها على بركان وتستعر من غضبه وحقده، والكوفة بأحد معانيها هاشمية علوية، ولذا كان أهل الكوفة من أشدّ النّاس بلاء في هذه المحنة الحمراء وأشدّ أهل الكوفة بلاء الأمثل منهم فالأمثل.

شعر الشّيعة بالخطر جاثماً حولهم يجيش عليهم من هنا وهناك ونشط الولاة في مجابهة أصحاب علي (عليه السلام)، بعد أن توفرت لديهم سائر الأسباب، وأقبلت السّاعة الرّهيبة تقدّم بين يديها السّيف والنّطع للقتل وتهيئ الجذوع للصلب.

لقد عانى أصحاب علي (عليه السلام) أنواعاً شتّى من الظّلم والاضطهاد وكان من بينهم حجر بن عدي الكندي الّذي ذهب فريسة تنهشها الأنياب بدون شفقة ولا رحمة.

لقد رأينا كتاب معاوية لعماله ورأينا وصيته للمغيرة بن شعبة وهذا مضى صادعاً بأمر مولاه – والمغيرة رجل لا يعوزه الخبث كما لا يعوزه البغض الشّديد لأمير المؤمنين (عليه السلام) – فكان لا يألو جهداً في إنفاذ وصية معاوية فكان يقوم على المنبر ويشتم علياً ويذمه وينال من شيعته ويستغفر لعثمان ويزكّيه وأصحابه ويلعن قاتليه.

كانت تمرّ هذه الكلمات كحديدة محماة تلسع قلوب المؤمنين وتثير حفيظتهم وفي الوقت نفسه لم يغب عن أذهانهم المغزى الحقيقي الّذي يقصده المغيرة من ورائها فإنّهم كانوا يعلمون أنّها شبه إنذار للشّيعة... ولكن حجر بن عدي أبى عليه إيمانه الصّادق أن يخلد إلى الصّمت، ويسكت ويداهن الولاة، فكان يلقي رأيه صريحاً لا يبالي بالمصير أيا كان، وكلّ ما يهمّه من الحياة أن يدافع عن عقيدته ويرضي إيمانه وضميره انتصاراً للحق والمثل العليا، وإعلاءً لكلمة الله في أرضه، ولم يكن يرى حرجاً في أن يرفع صوته يشجب رأي الخطيب فيقول:

«بل إياكم قد ذمّ ولعن، إنّ الله عزّ وجل يقول:

«يا أيّها الّذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم» وإنّي أشهد أنّ من تذمون أحقّ بالفضل ممن تطرون، ومن تزكون أحقّ بالذّم ممن تعيبون».

صوت رنّ جرسه في المسجد فاستوعب شعور المستمعين، ولم يكن حجر مبالغاً في شعوره هذا، وإنّما يستخلصه من شخصية تركزت في الإسلام وتعود به الذّاكرة إلى أيّام بعيدة يوم كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) لا يني عن تمجيد علي (عليه السلام) وتقديمه على سائر المسلمين وإلى أيّام قريبة يوم كان عليّ على منصة الخلافة ورآه ينفّذ قوانين الإسلام ويبثّ العدل الاجتماعي بين طبقات الشّعب سواء بسواء.

جفل الأمير من الصّوت، ولكنّه اصطنع الهدوء إذ لم يكن ميسوراً له أن يثير العاصفة والتفت إلى حجر هادئ الأعصاب وقال:

«يا حجر ويحك اكفف عن هذا واتق غضبة السّلطان وسطوته فإنّها كثيراً ما تقتل أمثالك».

ولكنّ حجراً لم يكن من الّذين يعرفون هوادة في دين الله، ليعطي بالاً لهذا التّهديد أو يداخله خوف أو رهبة من أن يصاب في سبيل عقيدته وإيمانه مهما كان نوع ذلك الأذى، بل لعلّ ذلك كان أدعى للحماس في نفوس الآخرين الّذين مضوا بحماس في مرّة ثانية حتّى عسر عل الخطيب أن يخمد الصّوت فإنّهم حدثونا:

«إنّ المغيرة كان على المنبر يخطب فنال من علي (عليه السلام)» ولعنه ولعن شيعته، «فوثب حجر وصاح بالمغيرة صيحة أسمعت كلّ من كان في المسجد وخارجه، وقال له:

«إنّك لا تدري أيّها الإنسان بمن تولع، أو هرمت؟ مرّ لنا بأعطياتنا وأرزاقنا فإنّك قد حبستها عنا ولم يكن ذلك لك، ولم يكن يطمع في ذلك من كان قبلك، وقد أصبحت مولعاً بذم أمير المؤمنين، وتقريض المجرمين» فقام معه أكثر من ثلاثين – كما في رواية الأغاني– وفي رواية الطّبري وابن الأثير أكثر من ثلثي النّاس يقولون صدق حجر وبرّ، مر لنا بأعطياتنا، فإنّا لا ننتفع بقولك هذا ولا يجدي علينا».

أيّ محروم يستطيع أنْ ينحني راضياً أنْ يحبس عليه رزقه ويقطع عنه عطاؤه ثمّ يرى الولاة ومن يواليهم من المقربين والأعوان موفورة عليهم أرزاقهم وأعطياتهم ثمّ لا ينكر أشدّ الإنكار، وإنّ حجراً شديد الشّعور بإحساس النّاس، عليم بالعواطف الّتي تحفهم وتحتضنهم فأراد أن يظهر لهم عبث الولاة بمقدراتهم واستئثارهم بحقوقهم.

ومن ناحية ثانية عهد الإسلام لا سيد ولا مسود ولا فرق في العطاء، والتّفاضل في العطاء وإنْ ظهر في عهد عمر وكان خطأ غير مقصود ولكنّه في عهد عثمان قصد إليه ونمى نمواً طاغياً وأتى أُكله شهيّاً في عهد معاوية حتّى لم يكن من المستطاع هضمها والصّبر عليها ولم يكن هذا الصّوت الأوّل يرتفع في مسجد الكوفة فقد انطلق قبله صوت من حنجرة أبي ذر رحمه الله ينكر هذه الفوارق وتطور الصّوت حتّى انقلب إلى إنكار دامٍ، ثمّ انطلق من حناجر أخرى من أصحاب النّبي (ﷺ) وسمع من هنا وهناك همسات وأصوات تنكر الأثرة وهذا الغنى، وتنكر قطع الأعطيات عن المحرومين والمعوزين في المدينة وفي الشّام، فكان من الطّبيعي أنْ يرتفع الصّوت في مسجد الكوفة من جميع جوانبه وفي خارجه وعلى كلّ لسان، ولعلّها صيحة كانت من ألسنة المعوزين وذوي الحاجات ولعلّها لم تكن من ألسنتهم ولكن من ألسنة قوم عسر عليهم أنْ ينظروا إلى هؤلاء السّادة يرفلون بهذه المعالم الفاخرة، وقد نسوا دعوة المساواة الّتي أراد الإسلام أن يجمع بها الأمم في صعيد واحد مؤلفاً بين الأفراد، ليؤلف منهم أمّة واحدة سادت بين أفرادها المحبة والإخاء، كما نسوا من حولهم من المحرومين والمعوزين المعذبين في الأرض، يتململون في أحضان البؤس قد اعتصرت قلوبهم يد الأسى المرير.

ومهما يكن من شيء فقد ارتفع صوت الإنكار على المغيرة فانطلق من فوره إلى قصره ولكن هذا الصّوت خلّف مرارة في نفوس ثقيف كادت أنْ تصل إلى الجلاد الأحمر ودخلوا عليه ولاموه في احتماله حجراً وأصحابه، وتحمس شباب ثقيف وطلبوا أنْ يأذن لهم ليأتوه برأس حجر السّاعة؟ فإنّ المسألة بنظرهم تعدت عن طور الخلاف في المبادئ إلى الاستهانة بكرامة الوالي المحفوف بقوة السّلطان وبشباب ثقيف.

ألقى الوالي بصره إلى الأرض يستنجد الفكر ليتبين أصلح الأمرين أيندفع مزهواً بحماقة شباب ثقيف وقوة معاوية؟ أم يسكت ولا يلقى الله موزوراً بدم حجر الزّكي وكأنّه ألهم أنّ الشّر كلّ الشّرّ في إراقة الدّم، فرفع رأسه وهو يقول: «لا والله ما كنت لأقتلَ حجراً أبداً»، ثمّ تابع حديثه بصوت مازجه النّصر الأكيد وقال: «إنّي قد قتلته».

– «وكيف ذلك؟»

– «إنّه سيأتي أميرٌ بعدي يحسبه مثلي، فيصنع به شبيهاً بما ترونه، فيأخذه عند أوّل وهلة فيقتله شرّ قتلة، إنّه قد اقترب أجلي، وضعف عملي! وما أحبّ أنْ أبتدي أهل هذا المصر بقتل خيارهم! وسفك دمائهم، فيسعدوا بذلك وأشقى ويعز معاوية في الدّنيا، ويذل المغيرة في الآخرة».

إلى هنا انتهى به التّفكير، ولم يشأ أنْ ينقاد إلى شباب ثقيف، وآثر أنْ يكون ليّناً في أمثال هذه الحوادث، ولم يكن جل همّه في أنْ يرضي معاوية بقتل خيار المصر أمثال حجر، وخرج المغيرة من زاوية الحياة ولم يحدث في حجر حدثاً.

معاوية أبت عليه أحقاده وأمويته إلا أنْ يقطع صلة النّاس بعلي أمير المؤمنين (ﷺ) وبآل رسول الله (ﷺ)، وأراد أنْ يربي جيلاً من النّاس لا يعرفونهم فاصطنع ولاة يقتحمون المخاطر فيلعنون علياً (ﷺ) وحسناً وحسيناً (عليهما السلام) على المنابر بكلّ صلف ويجترحون الإثم بكلّ وقاحة، فاختار للكوفة المغيرة أوّلاً ثمّ اختار لها زياد بن أبيه ولم يتردد الرّجل الخاسر الأثيم الّذي أكلت قلبه حرارة الحقد وأوجعته مرارة التّشهير بالنّسب المصطنع، وابن سمية يعلم أنّ الشّرّ بين شفتيه، ويعلم أنّ الكوفة مغرس الشّيعة ومنبتهم، فأراد أن يصطنع النّصيحة قبل أن يمتشق حسام السّلطان فحرك شفتيه تهمس في أذن حجر وقال: «.. تعلم أنّي أعرفك، وقد كنت وإيّاك على ما قد علمت –يعني من حبٍّ علي– وإنّه قد جاء غير ذلك، وإنّي أُنشدك الله أن تقطرني من دمك قطرة فاستفرغه كلّه، أملك عليك لسانك وليسعك منزلك وهذا سريري فهو مجلسك، وحوائجك مقضية لدي فاكفِني نفسك، إنّي أعرف عجلتك، فأنشدك الله يا أبا عبد الرّحمن في نفسك، وإيّاك وهذه السّفلة؟ وهؤلاء السّفهاء أنْ يستفزوك عن رأيك! فإنّك لو وهنت عليّ أو استخففت بحقك لم أخصمك بهذا من نفسي».

وفي رواية الأغاني «فجمعت الكوفة والبصرة لزياد فدخلها ووجّه إلى حجر فجاءه –وكان قبل ذلك صديقاً له– فقال له قد بلغني ما كنت تفعله بالمغيرة فيحمله منك وإنّي والله لا احتملك على مثل ذلك أبداً، أرأيت ما كنت تعرفني به من حبّ علي وودّه فإنّ الله قد سلخه من صدري فصيره بغضاً وعداوة، وما كنت تعرفني به من بغض معاوية وعداوته، فإنّ الله قد سلخه من صدري وحوّله حبّاً ومودة، وإنّي أخوك الّذي تعهد إذا أتيتني وأنا جالس للناس فاجلس معي على مجلسي، وإذا أتيت ولم أجلس للناس فاجلس حتّى أخرج

إليك، ولك عندي كلّ يوم حاجتان، حاجة غدوة وحاجة عشية، إنّك إنْ تستقم تسلم لك دنياك ودينك!! وإنْ تأخذ يميناً وشمالاً تهلك نفسك وتشط عندي دمك، إنّي لا أحبّ التّنكيل قبل التّقدمة، ولا آخذ بغير حجة، اللّهمَّ فاشهد».

لم يغب عن حجر أنّه عرضٌ سخيٌّ بلا ريب، يعقل ألسنة المواربين، ويكم أفواه المتملقين، أراد ابن سمية أن يشتري به ضمير حجر ودينه، ولكن الدّاهية خذله دهاؤه وذكاؤه فجاءه من طريق الرّشوة المزرية ولم يستطع حسم المشكلة من ناحية أُخرى تلتقي مع صديقه القديم، وكأنّ الطّاغية نسي أنّ حجراً لم يبع دينه قط ولم يغفل عنه، ولن يهمل المبدأ الّذي رسمه لنفسه منذ دخل الإسلام ولا هو بالمتهم في شرفه ونسبه وهو الصّلب في دينه وإيمانه فلا تأخذه زخارف الحياة الدّنيا وأمثال هذه المواعيد الرّخيصة، أفكان عجباً أنْ لا يلتقي مع زياد ابن أبيه إلا مكبلاً بالحديد.

الحياة بدون هدف سام مرذولة تعافها النّفوس الكبيرة، ولا هدف لحجر سوى هذه الأهداف العليا الّتي وضعها الإسلام تحت بصائر المسلمين صريحة واضحة لا لبس فيها ولا إبهام يهدف إلى الصّلاة تقام في أوقاتها وإلى الزّكاة توضع بين يدي من يستحقها وإلى الحج تقام شعائره ومناسكه وإلى الصّوم تؤدّى نسكه وإلى التّسوية بين المسلمين، فلا فضل لسيد على مسود ولا لأمير على رعية، ولا لعربيّ على أعجمي، ولا لأبيض على أسود وكلّهم في كفة الميزان سواء لا يفضل أحد على الآخر إلا بتقوى الله والعمل الصّالح، وجزاء ذلك على ربّ النّاس يوم يقومون للحساب، هذا هو الهدف الأسمى الّذي يهدف إليه حجر وهذا هو الّذي عرف به منذ اعتنق الإسلام وأخذ نفسه بتطبيقه فكان بذلك راهب أصحاب النّبي (ﷺ).

ومعاوية لم يكن يهمّه شيء من هذا ولو استطاع أن يقضي على الرّوحيات لفعل، فإنّه كان يخضع لنزعات قديمة هي كالغريزة في كلّ أمويّ، وراح يملي هذه النّزعات على رجاله وعماله الّذين اختارهم بطانة له يؤيدون أغراضه ويعملون على مشتهاه، وأمّا الإسلام وشعائره فلم يكن من مهماتهم، ولا هم منه في شيء، وهذا ما كان يهيج حجراً وأمثاله حدّثونا: «إنّ زياد بن أبيه خطب يوم الجمعة فأطال الخطبة وأخّر الصّلاة، فقال حجر: الصّلاة، فمضى في الخطبة ثمّ قال الصّلاة فمضى في الخطبة فلما خشي حجر فوات الصّلاة ضرب يده إلى كف من حصاة وثار إلى الصّلاة وثار معه النّاس، فنزل فصلى وكتب إلى معاوية».

هذا مشهد من مشاهد ابن سمية ضمه إلى مشهد آخر من مشاهده وهي شتم عليّ (ﷺ) على المنبر ولعنه ولعن أصحابه المؤمنين وأقصائهم وقطع أرزاقهم وكلّ هذه تثير حفيظة النّفوس الكريمة المؤمنة.

ولعلّ ابن سمية فعل ذلك بدافع نزوة الانتقام، ولعلّه بيّته من قبل ذلك إنّه يعلم أنّ حجراً وأصحابه المؤمنين لا يصبرون على الاستهانة بفرائض الله سبحانه وأحكامه، فأراد أنْ يهيجهم ليضرب ضربته القاسية ويشفي غيظه وكوامن حقده من هؤلاء البررة الّذين لا تأخذهم في دين الله لومة لائم.

وفي الرّواية أنّ ابن زياد تمثّل على المنبر:

فلما غدونا العرض قال سراتنا علام إذا لم نمنع العرض نزرع

ما أنا بشيء إذا لم أمنع الكوفة من حجر وأدعه نكالاً لمن بعده، ويل أمّك حجر لقد سقط العشاء على سرحان.. وأرسل في طلب حجر، فقال أصحابه لا يأتيه ولا كرامة فجمع أهل الكوفة وقال: «يا أهل الكوفة تشجون بيد وتأسون بأخرى، أبدانكم عندي وأهواؤكم مع هذا الهجهاجة الأحمق المذبوب، أنتم معي، وإخوانكم وأبناؤكم وعشيرتكم مع حجر» فقالوا: معاذ اله، أنْ يكون لنا فيما ها هنا رأي إلا طاعتك، وطاعة أمير المؤمنين، قال: فليقم كلّ امرئ منكم إلى هذه الجماعة الّتي حول حجر فليدع الرّجل أخاه وابنه وذا قرابته ومن يطيعه من عشيرته حتّى تقيموا عنه كلّ من استطعتم، ففعلوا ذلك، فتخاذل عنه أكثر النّاس، ثمّ خرج حجر يتلدد من مكان إلى آخر وعجز زياد عنه، فأرسل إلى محمّد بن الأشعث الكندي فقال له: «أمّا والله لتأتيني بحجر أو لا أدع لك نخلة إلا قطعتها، ولا داراً إلا هدمتها ثمّ لا تسلم منّي بذلك حتّى أقطعك إرباً إرباً، فقال له: أمهلني أطلبه فقال أمهلتك ثلاثاً فإنْ جئتَ به وإلا فاعدد نفسك من الهلكى».

فبلغ ذلك حجراً -وحجر وابن الأشعث كنديان فما أحبَّ أنْ يصيب ابن عمّه سوء بسببه- فأرسل حجرٌ إليه قد بلغني ما استقبلك به هذا الجبار العنيد فلا يهولنك شيء من أمره فإنّي خارج إليك فاجمع نفراً من قومك، وادخل عليه واسأله أن يؤمنني حتّى يبعثني إلى معاوية فيرى فيَّ رأيه، فذهب محمّد وجماعة إلى زياد وطلبوا إليه ما سأله حجر فأجاب، فأرسلوا إليه وأعلموه بذلك، فأقبل حجر حتّى دخل على زياد فقال له مرحباً أبا عبد الرّحمن حرب في أيّام الحرب، وحرب وقد سالم النّاس على نفسها تجني براقش فقال له ما خلعت يداً عن طاعة، ولا فارقت جماعة، وإنّي لعلى بيعتي فقال هيهات يا حجر أتشج بيد وتأسو بأخرى وتريد إذْ أمكنتا الله منك أنْ ترضى؟ هيهات والله، انطلقوا به إلى السّجن فألقي فيه عشر ليال، وزياد ليس له عمل غير الطّلب لرؤوس أصحاب حجر فجمع في الحبس منهم اثني عشر رجلاً.

٤

أئمّة شهود صلحاء يقدّرون تبعة الشّهادة، ويعلمون واجبها حق العلم؟

لا أدري! غير أنّي أقدم بين يدي القارئ شهادة أبي بردة بن أبي موسى الأشعري ليعلم دخيلة هذا المزوّزر المنحرف وإنّها ناشئة عن عداء يتصل بأبي موسى وإليك نصها:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم هذا ما أشهَدَ عليه أبو بردة بن أبي موسى الله رب العالمين: أشهد أنّ حجر بن عدي خلع الطاعة، وفارق الجماعة، ولعن الخليفة، ودعا إلى الحرب والفتنة، وجمع إليه الجموع يدعوهم إلى نكث البيعة، وخلع أمير المؤمنين معاوية، وكفر بالله كفرة صلعاء».

شهادة فذة في تاريخ الشّهادات قد لا يكون لها مثيل أشبعت نهمة ابن سمية وملأت نفسه ثقة بنجاح مهمته، والأمير يريد هذه الشّهادة وأمثالها من شهادات، يقول المؤرخون: «فأعجبت زياداً هذه الشّهادات، وقال على مثل هذه الشّهادة فاشهدوا، والله لأجهدن في قطع عنق الخائن! فشهد رؤوس الأرباع الثّلاثة الآخرون على مثل ذلك».

شهادة لا تحتاج إلى التّعليق عليها، فإنّها نكراء تكشف عن تبييت القوم الشّنآن والغدر وأي شيء أدلّ على ذلك من قول ابن سمية «على مثل ذلك فاشهدوا» وللقوة منطق غير منطق الحق وميسور لها الفرض.

إنّ مثل هذه الشّهادة ليس بالشّيء الجديد ولا هي وليدة السّاعة، فإنّ لها مثيل في الإسلام سجلها التّاريخ على ماء الحوأب، ولم يكد ينطوي ذكرها بين تلافيف الزّمن فإنّ عهدها قريب ولا يزال ذكرها في أذهان النّاس، وكأنّ ابن سمية أراد أن يعيد الأرقام الحسابية في حساب الزّمن ويلعب على المسرح مرة ثانية.

إنّها في الحقيقة سلعة رخيصة، تعرض في سوق خصبة بالنّفسيات الحاقدة والتّاريخ نفسه يجار إنّها الثّغرة اللئيمة ينفذ منها الوالي إلى تدبير لئيم، وما نحسب أنّ امرءاً من السّذاجة يحسب أنّ ابن سمية أراد أن يستتر وراء هذه الشّهادة بحصن حصين فإنّه معلوم أنّ البناء متداع وأنّه رخيص.

ومعلوم أيضاً أنّه تدبير من ضاق صدراً بموقف حجر، والتهب قلبه موجدة عليه فيتخذ من الكاذبين وسيلة لغاياته.

وما الّذي يريده من وراء هذه الشّهادة فإنّ من حق القارئ أن يثير السّؤال فإنّ الشّهادة حجة واهية والنّهاية معلومة من البداية.

ولكنه واضح أنّ الخذلان أو سياسة التّخاذل هي الّتي أدّت إلى هذا المصير الرّهيب، وما كان ليحلم بأنْ ينتهي الأمر بمثل هذا اليسر والسّهولة، والتّخذيل والبطش ليسا دائماً عنوان القوة وهو يعلم كلّ العلم أنّ قتل حجر خطر كلّ الخطر ويخشى أن تكون عيون فاحصة تتطلع إلى الحادث من نواح شتى ثمّ تلقي التّبعة عليه بأيسر مما أخذ به حجراً، وابن سمية زودته التّجارب بصنوف من المخاوف والشّكوك في عقبى الحوادث وهو يعلم أنّ العرب -قديماً طبعاً- لا يدينون بغير شريعة الثّأر والدّم نقمة هوجاء ترجف من حولها الأرض والسّماء وتستجيب لها نفس العربي بطبيعته، وابن سمية يتلمس هذا باليد والسّمع والبصر.

ولعلّه أراد من هذه الشّهادة أنْ يجيش المعاذير قبل أنْ يريق الدّم، فانتهى به التّفكير المفكك إلى هذه الصّورة الباهتة اللون، واتخذ جماعة ممن يعنى بهم من عبدة المادة ولذلك قدّم رؤوس الأرباع للشهادة، ثمّ من بعدهم من له مكانة مرموقة في قومه ليتخذ منهم ملاذاً يبعده عن الخطر فيما لو حدث.

وشي آخر فإنّ ابن سمية نزوع إلى الشّرّ دائماً جبلت عليه طبيعته وهو مخلوق فيه طموح لا ينبض قلبه بعاطفة ولا ينطوي على شفقة ولا متسع فيه لرحمة، فهو صورة ثانية عن معاوية تجيش نفسه بالشّر والإثم دائماً ويجهد أن لا يعود حجر من سفره هذا، فأحكم الشّهادة وعدد الشّهود لتطمئن نفس معاوية، فإنّه يخشى أنْ يبدو له فيهم كما يظهر من جواب ابن سمية له «قد عجبت لاشتباه الأمر عليك فيهم مع شهادة أهل مصرهم عليهم وهم أعلم بهم، فإن كانت لك حاجة في هذا المصر فلا تردنّ حجراً وأصحابه إليه» فالشّهادة إذنْ ليحكم هذه النّاحية وتم له ما أراد وعمل معاوية برأيه.

أمّا الشّهود فلا يعنينا أنْ نستقصي أسماءهم وحسب القارئ أنْ نعرّفه بخمسة منهم خمسة فقط وهم: عمر بن سعد، وشمر بن ذي الجوش، وشبث بن ربعي، وعمرو بن الحجاج الزّبيدي، وحجار بن أبجر.

ليقرأ القارئ الكتاب من عنوانه فإنّ هذه الأسماء تلقي ضوءاً على غيرها من الأسماء وحسبه من موقف هؤلاء ما سطره التّاريخ عنهم في كربلاء في حرب الحسين (عليه السلام)، ومن اللحظة الأولى يتبين له حقيقتهم، وتنتشر بين يديه صفحة عنهم فيها من الشّر ما يسهل له الطّرق للوصول إلى نفسياتهم الشّريرة، ويعلم أنّهم كانوا شوكة حادة مسنونة يحتجزهم الأمراء لكلّ شر، فاليوم يقدمهم الأمير لشهادة الزّور على حجر أنّه كفر بالله كفرة صلعاء وغداً أمير آخر يقدمهم لحرب الحسين (عليه السلام) ابن بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهناك في كربلاء يرى يد عمر الشّائكة تمتد فترسل أوّل سهم إلى الحسين (عليه السلام) وأصحابه ويقول لجنده اشهدوا لي عند الأمير أنّي أوّل من رمى بسهم، وإذا كان هؤلاء عنوان الشّهود فلا نرى من حاجة لاستقصاء أسمائهم أو التّعرض لصفحة من حياتهم.

بقي شيء واحد لا بدّ أنْ نشير إليه، وهو أنّ الطّبري ذكر أنّ السّري بن وقاص الحارثي كتبت شهادته وهو غائب في عمله وأنّ شريح بن هاني بعث إلى معاوية كتاباً مع وائل بن حجر -وهو من الّذين ذهبوا مع حجر بن عدي للشام- قال فيه: أمّا بعد فقد بلغني أنّ زياداً كتب إليك شهادتي على حجر بن عدي وإنّ شهادتي على حجر أنّه ممن يقيم الصّلاة ويؤتي الزّكاة ويديم الحج والعمرة، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، حرام المال والدّم.

وهذه الرّواية تلقي ضوءاً على جانب من الواقع، وليس أبلغ منها دلالة على أنّ نفس الشّيطان تحرّكه إلى التّزوير، وامتدت يده الأثيمة إلى قلمه يرسم الشّهادات كما يملي عليه حقده، ولعلّ الوالي المصاول أدلى بكثير من الشّهادات بإيحاء من بغيهِ ليصاول بها الحقّ، وإذن فمن الميسور أنْ يتسرب إلى النّفوس الشّك في كثير من شهادة الشّهود فإنّ السّبعين -عدد الشّهود- عدد ضخم قد يستبعد عليهم أنْ يشهدوا على حجر الخير القائم الليل الصّائم النّهار أنّه كفر بالله كفرة صلعاء أو ما إلى ذلك.

ويغلب على الظّن أنّ كثيراً منها كانت بإيحاء من ابن سمية فإنّ للبغي منطق لا يتصل بمنطق الحق وقد يؤيد هذا ما يروى عن شريح القاضي أنّه كان يقول: ما شهدت على حجر وبلغني أنّ شهادتي كتبت وكذلك ما يروى عن شريح بن الحارث كان يقول: سألني عنه -يعني حجراً- فقلت أمّا إنّه كان صواماً قواماً ولكن ابن سمية كتبه في الشّهود على حجر.

٥

ضرب ابن سمية نطاقاً على الكوفة من بأسه ولفها في ثوب من قوته فشلت يدها، ولا سلطان إلا سلطانه يلف الكوفة يكمم الأفواه فلا حديث ولا متحدث، همس يعلو الشّفاه، والأنفاس تضطرب منها الصّدور هابطة صاعدة، وكلّ كلمة تتحدث عن حجر، أو تطوف حوله، فهي تدبير القدر إلى حتف المتكلم ووضع لسانه بين فكي الكلابة لتسلته، وظلت الكوفة سادرة في صحراء الحيرة الواسعة الأطراف، يتجاذب أهلها الشّعور المرتجف في صدور تضطرب فيها الأنفاس، ولكنها حيرة تفسر لنا الحياة أجلى تفسير، وتزيل الحواجز عن الكوفة فنراها قد نفضت يديها من رشدها، وخفضت جناح الذّل خاضعة، قانعة بهذه الصّورة من امتهان الكرامة يستقبلون الحوادث المرهقة كما يستقبلها العبد الجبان ينطوي قلبه على الذّل مثل ما ينطوي عليه قومه عندما يعرضهم النّخاسون في سوق الرّقيق، هكذا نرى ابن سمية استهان بالكوفة سنام العرب وقدّم بين يديه القوة الموهومة فإذا الأرض غير الأرض والسّماء غير السّماء وفي لمحة عين تبدلت النّفوس فكانت غير النّفوس، وخمدت تلك الأصوات وانتشر في الكوفة الهدوء والسّكينة وداعب القلوب الخوف والوجل وذاعت في سككها رائحة الجبن القاتل ولم نر من يجاهر الوالي باستنكار السّياسة الإرهابية.

واندفع ابن سمية في طريق الغي يزمجر كالليث عندما بلغه أنّ أناساً يريدون أنْ يعرضوا لحجر وأصحابه إنْ خرجوا بهم فلم يستطع صبراً على ما يسمع وكان شديد الإيمان بكلّ ما يدبره، فبعث إلى الكناسة فابتاع إبلاً صعاباً فشد عليها المحامل ثمّ حملهم عليها في الرّحبة أوّل النّهار حتّى إذا كان العشاء قال: من يشاء فليعرض لهم فلم يتحرك من النّاس أحد فأخرجهم وائل بن حجر وكثير بن شهاب عشية ومعهم مائة رجل ممن يعتمد عليهم حتّى أخرجوهم من الكوفة ومعهم كتاب زياد ابن أبيه إلى معاوية وهذا نصه:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم لعبد الله معاوية بن أبي سفيان أمير المؤمنين من زياد بن أبي سفيان أمّا بعد، فإنّ الله قد أحسن عند أمير المؤمنين البلاء فأداله من عدوه وكفاه مؤنة من بقي عليه، إنّ طواغيت التّرابية السّابة السّيئة، رأسهم حجر بن عدي خلعوا أمير المؤمنين، وفارقوا جماعة المسلمين، ونصبوا لنا حرباً فأطفأها الله عليهم، وأمكننا منهم، وقد دعوت أهل المصر وأشرافهم وذوي النّهي والدّين منهم، فشهدوا عليهم بما رأوا وعلموا، وقد بعثت بهم إلى أمير المؤمنين وكتبت شهادة صلحاء أهل المصر وأخيارهم، في أسفل كتابي هذا».

أخرجهم بين سمع أهل الكوفة وبصرهم وتقبلوا هذا الصّغار بنفس راضية مطمئنة، لا يشفقون على كرامتهم من عار يلحق بها، أو مصير مظلم مرهب وهل كانوا يعلمون أي أثر ترك هذا الموقف في صدر زياد الغادر؟

ما كان أهونَهم -بعد هذا- عنده، فقد أطلّ الدّم الزّاكي وألحق بهم الذّل والهوان وآثر العافية أشراف الكوفة وفرسان العرب ولم تعرض سلعة رخيصة بين مشتجر الرّماح ومعرض السّيوف كحجر بن عدي الكندي، فإنّه خرج من تلك الأجمة ومن ذلك العرين مصفداً بالحديد مقيد الرّجلين مغلول اليدين إلى العنق ومعه أحدَ عشرَ رجلاً ينسبون إلى قبائل شتّى هان عليها المجد ورخص عندها الفخر ولم نسمع بأحد أنكر إلا ما حدّثونا به عن عبد الله بن الحر الجعفي أنّه قال: «ألا عشرة رهط استنقذ بهم هؤلاء ألا خمسة فلم يجبه أحد» وعندئذ صمت الرّجل ولاذ إلى الهدوء الّذي لفّ قومه من قبل واستل ابن سمية من بينهم نفوساً كريمة ضحّى بها على عتبة شهواته..

على خيط من ضوء ترسله النّجوم المشعّة سارت القافلة تخب في سيرها الطّويل على بساط من الرّمل، أمعنت في السّير في جوّ هادئ وسماء صافية الأديم كصفحة المرآة الصّافية يسيرون إلى حيث أراد لهم القدر المحتوم، يتقدمون إلى المأساة الحمراء كلما تقدمت بهم خطاهم، وقد سلوا عزيمة من إيمان يقطعون الشّقة البعيدة ليصلوا إلى الغاية المريحة في نهاية السّير المجهد.

الأسرى يدرجون على هدى من الإيمان، وصفاء من النّفس وصحو من الحياة شغلهم النّبل الإنساني عن كلّ شيء في هذه الحياة، ولم يبق قيمة لهذه الأغلال في أيديهم والقيود في أرجلهم، وكانوا آية في إنكار الذّات في جانب الحق وسفراً نقش النّبل على صفحاته لا سلطان علينا إلا سلطان الحق، نريد الله في كلّ أعمالنا، نريد الموت في سبيل الله.. الموت مشعل يضيء لنا الطّريق المفرق

بين الهدى والضّلال، وما كانوا في استمساكهم بنبلهم ماهمين، ولا أخطأوا هديهم فإنّ مصيرهم لا يغش طريقه ظلام، وإنّما هي نفوس راضية مطمئنة واثقة برضى الله قد ألهمها إيمانها هذه الثّقة فلم تستشعر خوفاً، ولا هي مشفقة مما يأتي به سلطان الظّلم، والقوى الغالبة، وإذنْ فليفعل الظّالمون ما أرادوا، فما أهونهم عليهم، وما أهون سلطانهم، وقد أبصروا طريقهم إلى الله سبحانه في هذه الولاية يقاتلون ويقتلون في سبيلها وهذا هو الخلود.

لم تكن الشّقة عليهم بعيدة وإنْ طال بهم السّير وكثرت المراحل فإنّ الإيمان سائق القوم وصفاء النّفس دليلهم، وليس مثلهما يهوّن الصّعاب ويخفّف المشاق ويخلق نشاطاً جديداً يفيض عليهم في كلّ مرحلة من مراحل الصّحراء القاحلة المحرقة، فقد ركبوا لغاياتهم جناح العزم، وفي قلوبهم شغف يجب عن أجسامهم متاعب السّفر الشّاق، وليس عندهم بين الكوفة وبين مرج عذراء إلا ساعة من إيمان، وما السّاعة إلا خطوة إثر خطوة حتّى يرتفع الصّوت من الحادي قفوا إنّه «مرج عذراء» مكان العاصفة الحمراء، فيثبتون مكانهم ينفضون عنهم غبار سفر ليتهيئوا إلى سفر آخر هو نقطة التّحول بين حياتين، حياة تلوثت بركام المادة، وحياة ارتفعت بها النّفس المؤمنة إلى أفق أسمى، لا سلطان فيه إلا سلطان الحق الدّائم.

هنا مرج عذراء وهنا انتهى بهم المطاف وهنا مهب العاصفة المجنونة الحمراء والزّوبعة الدّامية الهوجاء.

إلى مرج عذراء انتهى الطّواف، ولكن هل دخلوا بهم الشّام، وأدخلوهم على معاوية أو أنّهم انتهوا إلى مرج عذراء وحطوا رحالهم إلى الأبد.

يبدو الاضطراب واضحاً في أقوال المؤرخين وأهل المعاجم، بل ربما المؤرخ الواحد يلوح عليه الاضطراب، فمثلاً الطّبري يقول: مضوا بهم حتّى انتهوا إلى مرج عذراء -وبينها وبين دمشق اثنا عشر ميلاً- فبعث معاوية إلى وائل بن حجر وكثير بن شهاب فأدخلهما وفض كتابهما فقرأه على أهل الشّام، وهذا يلوح منه أنّ حجراً وأصحابه لم يدخلوا الشّام وهكذا الأغاني، وفي مكان آخر من الطّبري: «إنّ حجراً أُدخِل على معاوية فقال: السّلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال معاوية: أمير المؤمنين؟ أما والله لا أقيلك ولا أستقيلك أخرجوه فاضربوا عنقه» وابن سعد في طبقاته يلوح منه أنّهم أُدخلوا الشّام ولكن لم يقبل معاوية أنْ يدخلوهم عليه، والمرزباني والحاكم في المستدرك وابن عبد البر في الاستيعاب وابن حجر في الإصابة صرحوا بدخولهم الشّام وإدخالهم على معاوية، وليس لدينا ما ينفي أحد القولين أو يثبته ولكن الاعتبار لا يساعد على دخول حجر الشّام ولا على إدخالهم على معاوية لأنّ لحجر مقاماً مرموقاً في الأوساط الإسلامية العربية وهو على علم بسياسة معاوية المناوئة للإسلام ولآل النّبي (عليهم السلام) الّتي احتضنها أهل الشّام، وله ذكاء خارق، وفصاحة بارعة، فهو يستطيع أنْ يحمل النّاس على تصديق أقواله، وبالأمس القريب كانت صيحة أبي ذر تدوّي في أرجاء الشّم حتّى أنّه أثار حول معاوية شكوكاً وشبهاً وانقاد له عدد ضخم من معوزي الشّام وحتّى كاد الأمر أن يصل إلى عقبى غير مأمونة، فمن الرّأي -والرّأي لا يفوت معاوية- أنْ لا يدع حجراً وأحد عشر رجلاً من سراة الكوفة من رجال علي (عليه السلام) أنْ يدخلوا الشّام فيفتح عليه باب الشّبهة من جديد، وقد يوجد في الشّام من يحملها ثمّ يدور على قدميه في أزقتها مستشهداً على أعمال معاوية بحجر وصحبه المصفدين بالحديد، وحجر رئيس من رؤوساء كنده مضافاً إلى أنّه ناسك عرف بالنّسك والزّهد والورع وعرف بأنّه راهب أصحاب النّبي (صلى الله عليه وآله).

ومن ناحية ثانية، ما الّذي يؤمن معاوية أنّه إذا دخل حجر الشّام وأُدخل عليه أن لا يقوم رجل من رجال كنده والبلاط الأموي كان يعج بمختلف القبائل -فيطلبوا منه صاحبهم ولا يسعه أنْ يسيء إليهم بالرّد- وكندة ملء السّهل والجبل، وكذلك لا يسعه أنْ يستجيب لشفاعة أحد في حجر، فإنّ الخطر كلّ الخطر في أسرى مرج عذراء، وهو يعلم كلّ العلم أنّ كثيراً من القبائل موغورة الصّدر، ولا يمنعها مانع أنْ تتمرّدَ عليه ولو إلى حدّ ما، ومعاوية داهية يكاد يرى الأثر من بعيد فلماذا لا يجعل نفسه وراء سياج من حديد، فيقول كما حدّثونا: «لا أحب أنْ أراهم، ولكن أعرضوا علي كتاب زياد».

ومن الأدلة على ذلك ما حدّثنا به الطّبري: إنّ مالكاً بن هبيرة السّكوني قال لمعاوية دع لي ابن عمّي حجراً فقال له: إنّ ابنَ عمّك رأس القوم، وأخاف إنْ خلّيتُ سبيله أنْ يفسد عليَّ مصره فيضطرني غداً إلى أنْ أُشخصك وأصحابك إليه بالعراق، فقال له: والله ما أنصفتني يا معاوية قاتلت معك ابن عمّك في صفين حتّى ظفرت به ولم تخف الدّوائر، ثمّ سألتك ابن عمّي فسطوت وتخوفت -فيما زعمت- عاقبة الدّوائر ثمّ انصرف فجلس في بيته مغضباً واجتمع إليه قومه من كنده والسّكون وأناس من اليمن كثير، وقال: والله لنحن أغنى عن معاوية من معاوية عنّا، وإنّا لنجد في قومنا بدلاً ولا يجد في النّاس خلفاً سيروا إلى هذا الرّجل فلنخله من أيديهم، فأقبلوا يسيرون ولم يشكّوا أنّهم بعذراء لم يقتلوا، فاستقبلهم قتلتهم، فلما رأوه في جمع ظنّوه إنما جاء ليخلّص حجراً منهم، فقالوا لهم ما وراءكم؟ قالوا أتاب القوم وجئنا لنخبر معاوية! فسكت ومضى نحو عذراء، فاستقبله بعض من جاء وأخبرهم بأنّهم قتلوا فقال: عليَّ بالقوم وتبعتهم الخيل فسبقوهم حتّى دخلوا على معاوية وأخبروه خبر مالك، ومن معه، فقال اسكنوا فإنّما هي حرارة يجدها في نفسه وكأنّها قد أُطفئت.

رجع مالك إلى منزله ولم يأت معاوية، فأرسل إليه فأبى أن يأتيه فلما كان الليل بعثَ إليه بمائة ألف درهم وقال للرسول قل له: إنّه لم يمنعه أنْ يشفّعك في ابن عمّك إلا شفقة عليك، وإنّ حجراً لو

بقي خشيت أنْ يكلّفك وقومك الشّخوص إليه، فتقبلها ورضي، وأحسب أنّ في هذا ألف دليل ودليل على أنّ معاوية لم يأذن بدخول حجر وأصحابه الشّام.

٦

انتهى السّير عبر الصّحراء، وبان الرّكب أنّه قد بدأت اللحظة الحاسمة.. بهت الليل، وغار النّجم تعلوه صفرة من أشعة الشّمس الّتي تزحف مغيرة عليها، وأخذت إشعاعة من ضوء تترفق في صفحة الأفق، تدنو رويداً رويداً من طرف الصّحراء الشّرقي تهمس في أُذن الظّلام بالجلاء فإنّ الشّمس تزحف بقوتها وضيائها، وجرى اسم الله على ألسنة لم تعقلها قوة الظّلم وانطلق من شفاه لم تقيّد ولم تغل «الله أكبر، الله أكبر» دعوة السّماء إرشاداً إلى الكبير المتعال، إنّه لا إله إلا هو.

صوت يتردد في الفضاء، ويمرّ هامساً في آذان الرّقود، فيحرّك الجفون الهاجعة، ويمسّ القلوب الغارقة، فيبعثها إلى تسبيح الله وتمجيده ويدفعها إلى الله في أداء الفريضة، فمالت الكتيبة تلبيّ الدّعوة الصّادقة، ولكن أزعجها هرير الكلاب تنكر الصّوت يرن جرسه من جانب الصّحراء، فانتبه حجر إلى الهرير ومال إلى رجل قريب منه يسأله ما هذا المكان؟

مرج عذراء.

إيقاع موسيقي كان له في مسمعه لذّة موفورة، فقد أعادته الكلمة إلى عقدين من الزّمن وتزيد عندما كان يتقدم بنفسه وهو يقود كتيبة من الجيش الإسلامي ليفتح مرج عذراء فكان أوّل من وطأتها قدماه وأوّل من نبحه كلابُها في سبيل الله وهو الآن يعود إليها مصفداً بالحديد في سبيل الله، ولا تكاد المحنة الّتي أصابته تؤثر على نفسه، أو تفلّ شيئاً من عقيدته.

إذا خرجتَ من الشّام باتجاه المشرق إلى الغوطة متحدراً من ثنية العقاب وأشرفتَ على الغوطة ثمّ التفتَّ عن يسارك تطالعك أوّل قرية مما تلي الجبل هي قرية عذراء تطل على المرج الفسيح المديد الأطراف.

وأوّل ما يطالعك في عذراء قبة محكمة البنيان إلى جانب منارة عظيمة ظهر عليها أثر القِدم فإذا تقدمت إلى القبة تجد صخرة كتب عليها:

بسم الله الرّحمن الرّحيم، سكان هذا الضّريح أصحاب رسول (صلى الله عليه وآله وسلم) حجر بن عدي حامل راية رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وصيفي ابن فصيل الشّيباني وقبصة بن ضبيعة، كرم بن حيان بن شهاب السّعدي، وشريك بن شداد الخضرمي، كلمات تلمس حروفها أوتار القلوب لتعيد في أذهان النّاس صورة باقية من صور الماضي البعيد، وعتها القلوب في ماضي الأجيال وحاضرها كما وعت المرمى السّياسي الذي صبغ تلك البقعة من الأرض بالدّم المراق.

ذلك يوم لم يغب عن الأذهان أثره، وتلك دماء لم يغب عن العين مرآها القاني، إنّ يوم حجر طويل في حساب الزّمن للعامّة فيه شأن وللسّياسة فيه شأن آخر وللباحث فيه شأن غير شأنهما.

انتهى السّير بالقافلة إلى مرج عذراء البلد الّذي افتتحها حجر وأول مسلم كبّر فيها واستقبل المرج الفاتحين بالأمس والأسرى اليوم بهدوء يتخلله قلق وتوجّس من النّتيجة الكبرى الّتي تنبئ عنها هذه القيود والأغلال الّتي تحبسهم إلا عن أداء فريضة ربّهم من بعض نواحيها، وامتدت السّفارات بين الأسرى والبلاط الأموي، ولكن نفوس الأسرى لم تتسع للمساومة، والمسألة إنّما هي مسألة عقيدة وإيمان راسخين تعجز القوة عن استلالهما من الصّدور.

ولا شكّ بأنّ قمع الرّغبات المنطوية عليها القلوب ليس من الأمور السّهلة إذا كان مبعثها الدّعوة السّماوية الّتي رسمت للنّاس المنهج الأمثل، وقد رأينا من قبل أنّ حجراً وأصحابه تفتّح وعيهم للإسلام، وآمنت قلوبهم أشدّ إيمان وصفت نفوسهم أشدّ صفاء، فلم يكن ولاؤهم لعلي (عليه السلام) عن تقليد لتستطيع القوّة أن تؤثر عليه، أو ترهبهم السّيوف المسلولة، والقبور المحفورة.

لم يكن خافياً عليهم ما يريده معاوية منهم، ولقد أسفرت الأيّام عن دخيلة نفسه فلا يتجه إلا حيث يناديه طموحه وأمويته وليس عنده هدف يرمي إليه سوى إعادة سلطان الأمويين فهو يريد لعن أمير المؤمنين (عليه السلام) والبراءة منه.

قال المؤرخون: إنّ رسل معاوية قالوا لهم: إنّا قد أمرنا أن نعرض عليكم البراءة من عليّ واللّعن له، فإن فعلتم تركناكم وإن أبيتم قتلناكم، وأمير المؤمنين يزعم أنّ دماءكم حلّت له بشهادة أهل مصركم عليكم غير أنّه قد عفا عن ذلك فابرؤوا من هذا الرّجل نخلّ سبيلكم، قالوا لسنا فاعلين فأمر بقبورهم فحفرت، وأتي بأكفانهم فقاموا اللّيل كلّه يصلون.

على ضوء هذه الرّواية نرى على أية صورة من الصّور عوّل ابن هند أن يهدم ما بناه الإسلام من التّمسك بالعروة الوثقى من ولاء أهل البيت (عليهم السلام)، وليس هو بالشّيء الجديد ولا هو حديث السّاعة وإنّما هو ممتد في حبل الأصلاب، والآن عاد إلى الحياة ثانية حينما استوى معاوية قائماً على قدميه وبيده صولجان الحكم وقد ربّى جيلاً في الشّام لا يعرفون قرابة ولا صحابة غير بني أمية.

لأوّل مرة تأبى على رسل معاوية عقولهم الانسياق مع العاطفة المكبوتة بعد إدراك الحقيقة الّتي كانت خافية عليهم زمناً طويلاً فإنّهم رأوا قوماً يصلّون فيحسنون الصّلاة ويتهجدون فيطيلون التّهجد، فرابهم الأمر ودفعهم الفضول إلى أن يتبينوا الحقيقة الخفية عليهم من وراء السّتر الّذي كان أسدله معاوية بين أهل الشّام وبين الأمصار الأخرى، فاندفعوا إلى كشف السّتر فإنّه لم يبق ما يخالجهم بأنّ هؤلاء مسلمون يحسنون الصّلاة.

ويحسنون الدّعاء والتّضرع إلى الله ببكاء إنّهم لا يرون ما يستحق هذا الأسر إلا أن يكونوا قد خالفوا الحقّ من ناحية أخرى تستوجب هذه الأصفاد والأغلال.

وأي ناحية من نواحي الانتقاض على الإسلام يستوجب ذلك بنظر أهل الشّام؟! وواضح أنّ نقطة التّحول اليوم هي دم عثمان الّذي يبكيه أهل الشّام، وكلّ حجر ومدر في الشّام ودم عثمان السّؤال الأوّل والأخير للامتحان فراحوا يتألمون:

«يا هؤلاء قد رأيناكم البارحة أطلتم الصّلاة وأحسنتم الدّعاء فأخبروا ما قولكم في عثمان؟».

قالوا: «هو أوّل من جار في الحكم وعمل بغير الحق».

فقالوا أمير المؤمنين قد كان أعرف بكم، ثمّ قاموا إليهم وقالوا تبرأون من هذا الرّجل؟ قالوا بل نتولاه ونبرأ ممن يتبرأ منه.

هذه هي نقطة الارتكاز الّتي تفصل بين الأسرى وبين معاوية وليس وراءها مرحلة أخرى ولكن يجب أن نلفتك إلى شيء رأيته معنا من قبل فإن في الشّهود من شهد على حجر بأنّه «كفر بالله كفرة صلعاء» وهذا يستحق مرتكبه القتل على كلّ حال، غير أنّنا نسمع من رسل معاوية وسفرائه يقولون:

«إنّ دماءكم حلّت بشهادة أهل مصركم عليكم غير أنّه قد عفا عنكم عن ذلك فابرأوا من هذا الرّجل» فهل فهم أهل الشّام ما يريده معاوية؟ أو فهم النّاس ما أراده؟ يعفو عن المرتدين والّذين يكفرون بالله كفرة صلعاء –بزعمهم– ثمّ يعفو عنهم إن سبّوا علياً فيجعل السبّ كفارة ودرءاً للحدود.

غفرانك اللّهم انحراف لم يفهمه أهل الشّام ولا المسلمون قديماً ولا حديثاً وإنّما فهمه ثلة قليلة من المسلمين وهم الّذين ناهضوا السّياسة الأموية في البدء والنّهاية.

معاوية لا يهمه الإسلام إلا بمقدار ما يحفظ به سلطان الأمويين ولذلك لم يستقر له الأمر حتّى راح يناجز المسلمين والدّعاة إلى الله، ويقمعهم بسلاحه الماضي، ولم يدع وسيلة من وسائل الكيد والتّنكيل إلا ركبها: قطع الأيدي والأرجل، وسمل العيون ودس السّم، وصلب على جذوع النّخل، وما إلى ذلك في سبيل أمويته فقط وأمّا الخمور والفجور وهتك الحرمات وما إليها ففي قصره ترتكب وتحت سمعه وبصره تفعل ولا منكر.

أجل، لم يفهم معاوية أحد سوى حفنة من ذوي العقائد الرّاسخة، والإيمان الثّابت، ركزوا أنفسهم على قواعد الدّين الحنيف، فراحوا ضحية هذا التّركيز الإسلامي، ومنهم هؤلاء المصفدون بالأغلال في مرج عذراء، يساومهم أنصار معاوية وجلادوه، فلا تلين لهم قناة، وهؤلاء في كلّ أمّة، وفي كلّ زمان، هم الصّفوة المختارة، يلتمسون الحق في كلّ شيء وفي كلّ مكان ويعملون في سبيل الحق لذات الحق.

وعندما بدا لحجر أن يختار إمّا البراءة واللّعن وله ما يشاء من مفاتن الحياة من مال وسلطان ودنيا زاخرة بالمتع –فإنّ معاوية قد أعدّ له جميع ما يريد إن قيل– وإمّا القتل، لم يتردد لحظة واحدة في سلوك السّبيل الّذي يوائم مبدأه ويؤدي به إلى قضاء الواجب عليه في سبيل عقيدته وإسلامه، فتقدم إلى الجلاد وإنّه ليستهويه مشهد السّيف يهوي على حبل الوريد ليحزه كما يحز الحاصد سنبل القمح ويستهويه الخضاب بالنّجيع القاني بدلاً عن الحناء.

التفت إلى أصحابه مرحاً –وقد رأى منهم جزعاً– وقال: «قال لي حبيبي رسول الله (ﷺ): تقتل في محبة علي (عليه السلام) صبراً، فإذا وصل رأسك إلى الأرض مادت وانبعثت عين ماء فغسلت الرّأس، فجعل أصحابه يتهافتون إلى القتل كما يتهافت الفراش على النّار» فقال لهم أصحاب معاوية:

«يا أصحاب عليّ ما أسرعكم إلى القتل»؟

–«من عرف مستقرّه سارع إليه»

هؤلاء دون شك أنصار رسول الله (ﷺ) الّذين لم تفسدهم الأهواء والمطامع، الذّائدون عن الحق بدمائهم، يقدّسون المبادئ السّامية، والمثل العليا في الإنسانية المتعالية، وقد رابهم أمر معاوية وما يدعو إليه ورأوا الذّئب وقد توفرت عنده الدّواعي والأسباب المدمرة للمبدأ السّامي وبدت عليه نزعات تغالبه بموجدة مشبوبة الضّرام، وابتدأ يرسل المواكب من جنده وولاته لهدم المثل الإسلامية، فلا جرم أن يتقدموا بنفوسهم العلية ودمائهم الزّكية لتكون هذه الدّماء وتلك النّفوس إعلاناً عن أغراض معاوية الهدامة.

جردت السّيوف ودفع كلّ رجل منهم إلى رجل من أهل الشّام ليقتله ودفع حجر إلى هدبة بن فياض الأعور، وقيل إلى رجل حميري، فطلب حجر أن يتوضأ ويصلّي ركعتين فأذنوا له بذلك، فتوضأ وصلّى ركعتين خفيفتين وقال:

«ما توضأت إلا صليت، وما صليت صلاة قط أخفّ من هذه ولولا أن ترون أنّ ما بي جزع من الموت لأطلتها، وفي رواية لأحببت أن أستكثر منها».

في هذه السّاعة الأخيرة وهو في عالم من صفاء النّفس وجلاء الرّوح قال بصوت هادئ مطمئن لمن حوله:

«إذا أنا قتلت لا تحلّوا قيودي فإنّي اجتمع أنا ومعاوية على هذه المحجة» وقال: «لا تطلقوا عني حديداً، ولا تغسلوا عنّي دماً وادفنوني في ثيابي فإنّني مخاصم» أو قال: «فإنّا نلتقي غداً بالجادة».

ثمّ مشى يشقّ طريقه إلى السّيف والقبر بقلب ثابت وبال هادئ، يدفعه شعوره الفياض دفعاً إلى القيام بالواجب، ويحفظ في طيات قلبه الوفاء لنبيه (ﷺ) بالوفاء لأخيه ووصيّه وخليفته علي أمير المؤمنين (عليه السلام)، تقدّم وهو يجأر بكلمة «أشهد أنّ لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمّداً رسول الله وأشهد أنّ عليّاً وليّ الله وحجته».

ثمّ التفت إلى الذّئب المفترس الكاسر وقال:

«افعل ما أمرت به»

إنّها خطوة فذّة في تاريخ الشّجاعة ليس لها مثيل وتقدّم الجلاد بقلب الوحش تنحني عليه أضلاع إنسان بالسّيف فارتعدت فرائص حجر فقال له الجلاد:

«ألم تقل إنّك لا تجزع من الموت!! فإنّا ندعك وابراً من عليّ وقد أعدّ لك معاوية جميع ما تريده»

- «إنّي أرى كفناً منشوراً، وقبراً محفوراً، وسيفاً مشهوراً فمالي لا أجزع؟ أما والله لئن جزعت لا أقول ما يسخط الرّبّ والله لقد أخبرني حبيبي رسول الله (ﷺ) بيومي»

- «مدّ عنقك»

- «إنّ ذلك لدم ما كنت لأعين عليه، أو قال ما كنت لأعين الظّالمين»

فأسرع الجلاد بوحشية يتعجل قضاء الله في حجر، وسقط في ميدان الإيمان يخور في دمه ثمّ سقط في ذلك الميدان ستة من أصحابه وانطفأ المشعل الوضّاء.

انطفأ المصباح، وهنا موضع الإعجاب بصدق الإيمان وقوّة العقيدة، فيالعظمة الحق وجلال الإيمان.. سقط حجر ولكنه لم يمُتْ بل هو خالد.

وكان ذلك في شعبان سنة ٥١ وقيل سنة ٥٣ وقيل سنة ٥٠.

٧

واقعة مرج عذراء لم تكن الأولى من نوعها في عهد معاوية وإنما هي حلقة من حلقات فظائعه، تلاحقت تباعاً في سلسة الأعوام، وكلّ عام يأتي لا يخرج من حساب الزّمن الحاضر إلا ويحمل بين طياته حادثاً أليماً أو حادثين، ولعلّ أفظع حوادثه حادثة مرج عذراء، الّتي مشت مع الأجيال تشخب فيها الأوداج دماً عبيطاً يفور ولا يغور، ولعلّ الحادث أوقع في قلوب المسلمين توجساً وخيفة على الإسلام أنْ يتقلّص ظلّه وشيكاً.

لقد ناجز المصلحين، ونكّل بهم، وقمع الكثير منهم بسلاح حاد من طغيانه ولكن الأساليب الّتي أنتهجها معاوية في مرج عذراء كانت من أفظع الأساليب الّتي تقوم بها القلوب الوحشية المنحنية عليها أضالع إنسان.

حادث فظيع كان له جولة في الأصقاع ورنة أسى وحزن ملأ الأسماع، لغطت حوله الألسن حتّى لسان معاوية وأنكرته العقول حتّى عقل الجاني ففي الطّبري وابن الأثير:

قال ابن سيرين بلغنا أنّ معاوية لما حضرته الوفاة جعل يغرغر بالصّوت ويقول: يومي منك يا حجر طويل، ومن رواية أبي مخنف عند الطّبري «زعموا أنّ معاوية قال عند موته: يوم لي من ابن الأدبر طويل ثلاث مرات يعني حجراً».

وعند ابن عساكر قال معاوية: «ما قتلت أحداً إلا وأنا أعرف فيمَ قتلته ما خلا حجراً فإنّي لا أعرف بأيٍّ ذنب قتلته».

ما بال معاوية يقتل خيار المسلمين بدون أنْ يعلم السّبب ولا ينكر عليه أحد؟ ولنا أنْ نسأله عن ضحاياه الآخر هل عرف السّبب الّذي قتلهم عليه؟ كما وإنّا نسأل هل فهم المسلمون ما يقول معاوية وقعدوا عنه؟ أو أريد لهم القعود فقعدوا وهل القعود عند ارتكاب هذه الفظائع يدفع عنهم تبعة البيعة الّتي قلّدوه إيّاها وكان واجبهم أن يخلعوه ويتحلّلوا من تلك البيعة، وإنّي لآسف جد الأسف ويأسف كلّ مسلم غيور، أن نرى اليوم من ينعته بخليفة المسلمين حيناً وبأمير المؤمنين حيناً آخر.

أسئلة حرجة، ومن البدء نعلم حراجة الجواب، والأفكار الجامدة لا تتسع لمثل هذه الأجوبة فإنّه لا يزال في النّفوس نزغ يقاوم سلطان الحق والعقل ويتوجّس أولئك الشّر من الحديث حول الصّحابة ولكنها لا تتوجس من قبل النّفوس البريئة، حتّى لج العصاة في طغيانهم، واستهانوا بالأحكام الشّرعية كما استهانوا بالكرامة الإسلامية، وكلمة ابن هند ترسم لنا صورة عن كلفه بالغي والعدوان مهّدتهما له أمويته الصّارخة ورواسبه القديمة، ولقد أوشك في هذه الحقبة وهذا الزّمن أن تكون السّمة البارزة للخلافة العدوان الحاقد والبغي الصّارخ إلى غيرهما من أسباب أخرى لها حسابها وقيمها في نظر معاوية، وكانت الدّافع له ولفريق آخر من الأمويين في أن يتربصوا الدّوائر بالمصلحين وحماة الدّين يتشفّون بمنظر الدّم، وحسبنا أن نكون ألمحنا إلى الجواب من بعض نواحيه، وما لهذا الحديث من آخر ولا نريد أن نتبسط بالجواب ما دمنا نرى العقول لا تزال وراء القفص الفولاذي محبوسة.

في الوقت الّذي نرى معاوية مجرماً نراه ساخراً بالحوادث الّتي يرتكبها، أو على الأصح ساخراً بالمسلمين أو لعلّ الإمعان بالسّخرية حدا به أن يقول لسيد شباب أهل الجنة الحسين بن علي (عليه السلام): يا أبا عبد الله، هل بلغك ما صنعنا بحجر بن عدي وأتباعه وشيعة أبيك.

- ما صنعت بهم؟

- قتلناهم وكفناهم وصلّينا عليهم.

بادرة من معاوية ضاع فيها حسابه يود الخلاص منها ولات حين خلاص، وللحق نور يهتك حجاب الظّلمات ويكبت الظّالمين فإنّ الحسين (عليه السلام) هزأ منه وابتسم ابتسامة السّخرية الّتي حطت من كبرياء معاوية وهوّنت عليه نفسه ودينه حيث أجابه قائلاً: «خصمك القوم يا معاوية، ولكنا لو قتلنا شيعتك ما كفناهم ولا صلّينا عليهم ولا قبرناهم».

في هذا الجواب أصدق وصف وأبلغه لمعاوية وشيعته ولا ريب في أنّ الحسين (عليه السلام) كان يعني ما يقول حين حكم بهذا الحكم

على شيعة معاوية الظّالمين وهذا هو حكم الإسلام على من تمرّد تمرداً صريحاً بلعنة الباغي بدون موارية فبهت الّذي ظلم وباء الخسة ولم يغن عنه زهوه وظفره شيئاً ورجع يعفر جبهته المستعلية بالنّصر وخده يصعّره بالرّغام.

سقط حجر وسقط معه جماعة من أصحابه، وكان لهذا الحادث تجوال في الأمصار واستعظام في النّفوس، لم يسمع الحادث أحد إلا وأنكره، ولكن هذا الإنكار كانت تعوزه الحرارة والحماس من بعضهم غير أنّ عاملاً له حسابه كان يدعو إلى إيثار السّلامة والهدوء فعبد الله ابن عمر كان يتخبر عن حجر حينما انطلقوا إلى معاوية فأخبر بقتله وهو محتب بالسّوق فأطلق حبوته وولى وهو يبكي، وعند الحاكم: ولما كان ليال بعث حجر إلى معاوية فجعلوا يتخبرون ويقولون ما فعل حجر فأتى خبره ابن عمر وهو محتب بالسّوق فأطلق حبوته وانطلق فجعلت أسمع نحيبه وهو مول.

والسّيدة عائشة لما بلغها أخذ حجر بعثت عبد الّرحمن بن الحارث المخزومي إلى معاوية تسأله أنْ يخلّي سبيلهم، فقدم عبد الرّحمن على معاوية برسالة عائشة وقد قتلوا فقال: يا أمير المؤمنين أين عزب عنك حلم أبي سفيان، فقال: حين غاب عنّي مثلك من حلماء قومي، وحملني ابن سمية فاحتملت.

وفي الاستيعاب وأسد الغابة: ألا حَبَستهم في السّجون وعرّضتهم للطاعون؟ -قال حين غاب عنّي مثلك من قومي- قال والله لا تعدّ لك العرب حلماً بعد هذا أبداً ولا رأياً قتلتَ قوماً بعث بهم إليك أسارى من المسلمين.

وفي الاستيعاب أيضاً: لما حجّ معاوية جاء المدينة زائراً فاستأذن على عائشة فأذنت له فلما قعد قالت له يا معاوية أأمنت أنْ أخبأ لك من يقتله بأخي محمّد؟ فقال بيت الأمان دخلت، قالت أما خشيت الله في قتل حجر وأصحابه؟

وفي الطّبري: سمعت عائشة تقول: أما والله لو علم معاوية أنّ عند أهل الكوفة منعة ما اجترأ على أنْ يأخذ حجراً وأصحابه من بينهم حتّى يقتلهم بالشّام ولكن ابن آكلة الأكباد علم أنّه قد ذهب النّاس، أما والله كانوا لجمجمة العرب عزّاً ومنعة وفقهاً.

وفي تاريخ دمشق: روى الخطيب أنّ معاوية دخل على عائشة فقالت: يا معاوية قتلت حجراً وأصحابه؟ أما والله لقد بلغني أنّه سيقتل بعذراء سبعة رجال يغضب الله وأهل السّماء لهم.

هذه صورة من صور الإنكار تظهر لنا عظمة الحادث واستعظامه والشّعور حوله وإنْ كان شعوراً غير موفق لأنّه لم يكن كما يجب أن يكون وينقصه مزيد حرارة من الإيمان بالواقع المضطهد في مثل هذا الموقف، فإنّ للقوة منطقاً غير هذا المنطق، ولغة غير هذه اللغة، السّيدة عائشة وعبد الله بن عمر يملكان من القوة ما لا يملكه غيرهما في ذلك العصر وكان بوسعهما أن يرفعا الصّوت ويبعثاه مدوّياً بالاحتجاج إلى أقطار البلاد الإسلامية لكنّه إنكار تعوزه الحرارة الّتي تبعث في القلوب الحماس.

على أنّه ثمّة عامل آخر له حساب عند السّيدة عائشة أعياها الأخذ بالعنف لأجله، وكان السّبب في جنوحها إلى الهدوء في الإنكار الهادي، ذلك أنّ عند خصومها لساناً ذلقاً يتحفزّ للرّد عليها بمثل العنف الّذي يأخذهم به قريب من المنطق، يحفظه لها معاوية عندما تنضج الثّمرة، ولا تنام عينه عنه، ويرد عليها بأعنف مما تجابهه به من إنكار.

فإنّ معاوية يعلم أنّ حجراً كان يوم الجمل من خصوم السّيدة وهي تهز السّيف في وجهه كما يهز السّيف في وجهها وتضمر له السّوء كما يضمر لها السّوء، والحرب حينما تتحرك الكتائب ويتقابل الصّفان، ويتصاول الفرسان، لا تعرف مواطن الخطر ولا تفرق بين الرجال في ساعة النّزال ولعلّها لهذا وحده كان إنكارها باهت اللّون رخو المنطق.

وعلى كلّ حال فإنّ بكاء ابن عمر وحديث السّيدة إنكار على أي حال قد أصاب الهدف من بعض نواحيه.

ولابدّ لمن يتحدّث عن موقف المسلمين من هذه النّاحية أن يذكر الحسين (عليه السلام) قد قعدت به الوسائل عن أن يتعرض لهذه النّواحي، وظلّ متجنباً الحوادث مستعصماً بالصّبر لا يمله وإن كبر الأمر عليه.

ولكن معاوية أثار حفيظته بكتاب بعثه إليه إلى المدينة، فأجابه الحسين (عليه السلام) بكتاب أعنف منه، صريحاً الصّراحة الّتي ترسم مكان معاوية من مأساة حجر وغيرها من المآسي قال فيه:

«وما أظن الله راضياً يترك ذلك، ولا عاذراً بدون الإعذار إليه فيك وفي أوليائك القاسطين الملحدين، حزب الظّلمة، وأولياء الشّيطان، ألست قاتل حجر بن عدي أخا كندة وأصحابه المصلّين العابدين الّذين كانوا ينكرون الظّلم، ويستعظمون المنكر والبدع، ولا يخافون في الله لومة لائم ثمّ قتلتهم ظلماً وعدواناً من بعد ما كنت أعطيتهم الأيمان المغلظة، والمواثيق المؤكدة، لا تأخذهم بحديث كان بينك وبينهم ولا بأحنة تجدها في نفسك عليهم».

وهذا الكتاب من الحسين (عليه السلام) وإن جاء في وقت متأخر عن الحادث ولكن كفى به كلمة أصدق قولاً وأبلغ أثراً وودّ معاوية منها أن يكون مغيّباً بين أطباق الثّرى.